ساعات الكبرياء

ادوار الخراط

دار الآداب

ساعات الكبرياء

ادوار الخراط

ساعات الكبرياء

مجموعة قصص

دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٩٠

تحت الجامع

ـ أمَّه هاتي قرش. .

ـ يـوه جاك قـرش لما يقـرشك، هـو انتِ يا بتّ مـا تشبعيش قروش؟ طب سدي سد. هو أنـا قاعـدة لك عـلى بنك يـا بت، وإلا على حنفية قروش؟ قال إيه قال قرش. . صباحي وليلاتي على الله قرش. هو انت يا بت ما تستكفيش نيلة قـروش؟ إنت مش لسه واخده قرش امبارح من أبـوك، وقرش اصـطبحت بيه عـلى وش الصبح؟

والبنت ثبتت عينيها بوجـه أمها، يـربطهـما به سحـر الكلمات القاسي. الكلمات اللاذعـة تنثال عليهـا، لن تكف أبداً، تتقلب وتنز كأنمـا تخرج عن مـوقد الجـاز وهو يفـح في عتمة العصر التي توشك أن تطمس معالم الغرفة.

أمهـا تـربعت أمـام النـار، تقلّب الـطاسـة بـالملعقـة الكبـيرة الصدئة، ورائحة الباذنجان السخن سطعت في الهواء المحبوس. التفتت إليها أمها لفتة خاطفة تكويها بنظرة من العينين اللامعتـين بـألق أسـود صلب. وهـج النـار ينعكس عـلى الـوجـه الأسمـر

المتهضم، النضر مع ذلك بسخونة متضرجة. والمدورة تحبك الرأس وتلف الشعر الأثيث.

انحنت البنت على عروستها النائمة وسط كومة مهوشة من الخِرَق، وأزاحت العلب الصفيح والنفايات اللامعة على أرض الشرفة الضيقة، تحت ألواح الخشب المائلة على الحارة.

ورفعت عروستها إليها، خرقة أخرى ملفوفة محزومة بشريط ناصل، تتدلدل منها ساقان خرعتان لا قوام لهما، وذراعان إحداهما أطول من الأخرى وأسندت بيدها الرأس المحبوك بمزْقة من مدورة أمها، لم يبق فيها إلا بضعة أقراص دقيقة متلالئة من الترتر الأزرق. ما أجملها وما أرقها، تبتسم لها من عينين لا يعرف أحد غيرهما جمال نظرتها، وابتسامتها حلوة، وجسمها اللدن الهفهاف طيّع في يديها بحاجة إلى الحنان الذي يدر به صدرها ويغرقه.

ضمتها وابتسمت لها ابتسامة حميمة، واستدارت بها إلى جنب فلا يعود في العالم سواهما، والحنو والرقة. تطويها إلى صدرها الضيق الناحل، وتربت شعرها الكثيف المسرح، أصابعها، هي وحدها، تعرف مسته الناعمة. ابتعد أزيز النار ونشيش الكلمات والزيت المغلي. ولم يبق الا الشرفة المزحومة.

وهي تلتصق بلحاف مطوي قديم نبتت عليه نتف ملبدة من القطن المصفر، واللحاف يرتفع كأنه سد طري يحلو الاختفاء وراءه.

لم تكـد تنعم بكنّ مخبئها، وتنحني عـلى عروستهـا حتى وخزتهـا فجأة شظيـة ناتئـة من السَبُت المدور، تـطل منه رؤوس البصـل والثـوم النـاشف التي ضربتهـا الشمس. ونـدت عنهـا صرخـة، مكتومة كـأنها ذنْب. وخطفت يـدها مكهـربةً بـالألم فاصـطدمت بـأعناق زجـاجات الخـزين المسدودة بـالخرق، تكثفت في قـاعها صبابات من مـاء الزهـر والخل والسـبرتو. وهي تمص إصبعهـا، كأن في فمها حساً بالـدم الذي انبثق منـه يومـاً عندمـا كشطتـه زجاجة مكسورة العنق، لولا أن حجزته أمهـا عندمـا ربطت لهـا إصبعها بخرقة صوف.

ونور العصر تُريقه عليها سماءٌ ضيقة جافة محصورة بين سطوح البيوت ومئذنة الجامع الضخم العتيق. والحر آخذ بالنفَس.

ـ ماجدة، يا بت يا ماجدة يا مدهولة على عينك، انت ما لك يا بت؟ باندە عليك بقى لي ساعة وانت مـا ترديش يـا بت؟ هو انت اتلجمت، اتلبشت خـلاص؟ أعمـل إيـه في البت دي يـا خـواتي؟ قومي عـلى حيلك يا مضروبـة في جنبك هـاتي لي غـطا الحلة.

هـذه الولـولة تـدق قلب البنت، تفاجئـه بضـوء سـاطـع من الـرعب، فتنهض مدفـوعة كـأنما بـرغمهـا انـتزعتهـا الصرخـات وبطحتها على أرض صلبة، وعيناها معلقتان بالوجه الندي بعرق السـخونة الخفيف، والعينين المتألقتين بسعار جاد.

ـ اسم الله عليك وعلى أخوك، طب قومي يا ختي يا حبيبتي يالله، مش تفتّحي يا ضناي!

بادرت الكلمات الحانية تلحقها كأنما لتقيلها من عثرتها. كانت ذراعاها تضربان الهواء، خانتها ساقاها اللدنتان، في لهفتها على الجري إلى أمها، فاندفعت عتبة الشرفة تخبطها وتصدها.

لانت العينان الصخريتان وتسايل فيهما حنو تكسرت من فوقه القشرة الجامدة. وسال الدفء في قلب البنت كماء ساخن يحمل امامه السدود. وقامت تجري في أمان رحيب وهي تدعك جنبها. ولم تبك.

وعندما عادت إلى جنب اللحاف أسندت ظهرها إلى نعومته الدسمة. هذا الجانب العالي منه يؤويها الآن، دون لهفة ودون خوف. وقد عاد إلى الغرفة صمت خلا من الطنين، وهمدت الرائحة الكثيفة.

أخذت عروستها على مهل في حضنها. خداهما الآن متلامسان. وهما تنظران معاً إلى دكان العجلاتي المفتوح جنب باب الجامع الكبير.

تغيبان معاً في نشوة من تأمل العجلات السوداء مرصوصةً حتى السقف، وكأن أيديهما تتحسس معاً نعومة الدراجات المقلوبة المعلقة على الجدار، في قاع الدكان، مصقولةً فضيةً تومض في العتمة. تنبثق الأسلاك من بؤرتها، في أشعة هفهافة، مندفعة ومشدودة، محبوسة في توتر دائري لا تشبع منه العين.

وفي الخارج جدران الجامع الضخمة قائمة بأحجارها الكبيرة العتيقة، انبرت القشرة عن مربعات الحجر هنا وهناك وتعرى لحمها الحليبي الأبيض منوراً في السواد الذي تركته أجيال طويلة من التراب ومس الأيادي.

وهي تناغي العروسة، في كلماتها نبرة من صوت أمها ـ أمها الأخرى الحلوة:

ـ عايزه قرش يا حبيبتي؟ خدي يا ضناي، خدي آدي قرش. حتشتري بي إيه؟ كراملة.. وحمص.. ومصاصة.. وبسكوت كمان، تقرقشيه لوحدك وما تديش منه لحد.. إنت عايزه تنزلي في الحارة دلوقتي؟ طب انزلي يا ختي.. خلي بالك من السكة.. مسافة السكة وتيجي على طول.

في همس حميم، والعروسة تصغى وتبتسم، وجهها المصنوع من الخرق منور وضاح، وتسلم نفسها للحضن الرقيق.

ـ أمّه عايزه قرش، أمه هاتي.. هاتي قرش..

في ضراعة وخفوت وتردد، ولكن بثقة أيضاً، في دل من يعرف أن اللحظة حانت والقطاف دنا، وفي مكر.

ـ يوه هو انت يا بت الليل عليك اسمه قرش، خلاص علّقت، ، طيب يا قرشانه انت، طيب. روحي ياللا.. قدامك على رخامة البورية فيه قرش أهه تحت المفرش. أهه يا بت. خديه يا ختي وانجرّي على تحت أمال.. ما انا عارفة. بس أوعي تعوّقي.. خلي بالك من السكة.

عيناها تتبعان البنت، ثم تنهض، خفيفة، وتستند بيدها إلى الأرض، ومس الحصيرة الخشنة المشبكة تحت أصابعها يثب إلى راحة الكف ويصطدم بها يدعم وقفتها إذ تستطيل على بنيان قدها الطويل، على عمودي ساقيها العضِلتين ينسدل عليهما، من هيكل جسمها الوثيق الملفوف، ثوبٌ صيفي من «رمش العين» يتخايل تحته قميص فستقي خشن النسيج ولكن محبوك، قصير، إلى سمانتي الفخذين.

وهي ترفع الحَلّة المغطاة، بيد، والموقد المطفأ في اليد الأخرى ما زالت بطنه ساخنة بعد، وعدته السوداء منداة بالجاز اللاذع الرائحة، وتوازِنُ بينهما في سهولة جاءت عن مرانة طويلة. عيناها في المججرين الأسمرين الداكنين تتبعان البنت تتدأدأ في مشيتها وتهتز على عظامها الرقيقة إذ تجري إلى باب الغرفة، ومنها إلى الطرقة، ثم إلى السلم الضيق المعتم المكتوم.

في قلبها موجة خفيفة الاهتزاز من الحنان نحو هذه الحتة الصغيرة من أحشائها. هذه الجزازة الحية منها. وحدها الآن، مستقلة بحياتها الخاصة وإن كانت من كبدها ورحمها. ثم هي صورة غريبة أخرى من أبيها. فُولة وانقسمت فلقتين. الفم الواسع المدرب الحساس، والسنّتان الناتئتان...

شفتاها تعرفان ضغط هاتين السنتين الناتئتين.

وابتسامة ترف حول ركني فمها. شفتاها تتلامسان، كأنما هي تستطعم الدم الذي انبثق منهما مرة، في الليل، قبل أن تولد

مـاجدة. الليـالي القديمـة العاصفـة المتقلبة بـالهوس السـاطـع في الظلام، حتى يهمد بها عباب الأمواج المتراكبـة المليئة، ويصـلان إلى المرسى.

جاءتها من الباب المفتوح ضجة الجيران في الطرقة، والزعيق، والنداءات، والدعوات على الأولاد مقصوفي الرقبـة هو انت مش حتهمد يا واد بقى؟ هو أنت معجون بميّة العفاريت.. إلهي ياخدني ويريحني منك يا محمد يا ابن نفيسة.

وحنفيـات مفتوحـة وعمـود كثيف من المـاء ينصب ويصـطدم بجـدار سـطل من الصفيـح، ويثـال المـاء ويتسبسب من عـلى جوانبه، والخيشة تدفع السيل على بلاط الطرقة إلى السلم. هذه نفيسـة أم محمـد تكـد في الكنس والمسـح والـطبيـخ والتسـوية والغسيل طول النهار، وسلفتها نجيبة متربعـة جنب الراديـو أمام الشباك طول النهار تسمع الأغـاني المائعـة ـ المقروصـة في جنبها ـ وتلعب بعقـول الشبان في الحـارة من وراء ظهر زوجهـا. عقربـة ومستخبية يا خواتي. ويتخرب على الناس من تحت لتحت.

كان يقرض قلبها دائماً شـكٌ، لا يستند إلى أدنى أسـاس، في أن مقصوفة الـرقبة تلعب لـزوجها أيضـاً بالعـين والحاجب، ولا تراعي حق الجيرة والعشرة. هو حدس لا قوام له في الحقيقة التي تظهر للعيون، لكنه حدس لم يخنها قط.

وأم محمد تهتف فجأة مرتاعة:

ـ يـوه بسم الله الـرحمن الـرحيم حـاسبي يـا بت يـا مـاجـدة لتتزحلقي.

وباب السلم يصطفق.

تدوي الخبطة فيرتج لها قلبها، وفي طرف من أطراف هذا القلب المرضوض خشية من أن تستيقظ ماجدة مفزعة من حلاوة نومها في أول الصبح. الرجل يترك لها دنياها، وحدها مع البنت، ويمضي متوتراً بالغضب. والسترة الجلدية الداكنة تلف الظهر الوطيد وتحيط بالكوفية المعلقة حول العنق الركين.. أرض الطرقة تهتز تحت الخطوات القوية بالسخط والشباب والاستهتار. وكل يوم يصبح على هذا الحال، ولا يعود إلا في آخر الليل، عيناه محمرتان، والرائحة نفسها ليلة بعد ليلة، تتشبث بملابسه بل بعضلات صدره وذراعيه أيضاً، وتحت الأبطين وفي خفايا أركان الجسم. رائحة فيها حلاوة خافتة تكاد تنقلب لها المعدة تفوح من الفم بشفتيه الساخرتين المنفرجتين دائما عن الأسنان الحارة. وإذ يعود في النهاية يقر لها قلبها مع ذلك ويرتاح من خوفه ويضطرب أيضاً بالغيظ والحنق.

- هي الفلوس اللي بتروح على المدعوق ده مش فلوس؟ طب أعمل إيه بس لو مسكوه؟ أبقى ساعتها أروح فين وآجي منين يا خواتي؟ يا ختي.. الشر بره وبعيد. والعيّله دي أبقى أعمل بيها إيه؟ يعني آخرتها يسيبها في آرابيزي يبقى يا فرحتي يا هناي...!

تسرب ما ادخرته من أيام الشغل وشقاء الشغل. سحب منها القرشين بخلابة كلامه وسحر أصابعه. وما زال يطلب منها

المـزيد. كـأنمـا لا تكفيهـا وزيـادة بـالـوعـة البيت التي لا تشبـع، ومصاريف الطفح الأكل التي تقصم الظهر. وهو كل يـوم سبت لا يكـاد يرمي لهـا ما يلم أطـراف البيت عـلى بعضهـا البعض. وهـاتي هاتي بـا بت الكلب.. حتى الصيغـة بـاعهـا من زمـان، وحججه لا تنتهي، وضيّعها على المحروق الـذي لا ينتهي ظمأه إليه.

ومـا زال في ظنـه أنها تخبىء عنـه بقيـة، ومـا زال يـداجيهـا ويناغيها مرة ويعنف بها ويعصف مرة. يطاوعها ويلاينها أو يتنكر لها ويسب الدين والملة، يجهـد أن يستقطر منهـا الصبابـة الأخيرة بالمحايلة أو الخطف على السواء. كانت قد أفرغت مـا لديهـا بين يديه منذ أمد طـويل، ولكنهـا تتركـه عن عمد يستشف من نـبرة صوتها أحياناً، أو من كلمة نافرة كأنها أفلتت عفواً، أنها ما زالت تكتنـز شيئاً في حـرز حريـز، وإن كانت لن تسلمـه كنزهـا. فلو تيقن أنها صفر اليدين حقاً..

هـل هي خدعـة تلك التي تقيها هي وبنتهـا، وتحمي بيتهـا؟ أليس لديها في الحقيقة كنز آخر، وهي تحجبه وتحرس بابه؟

لكن يديه الخشنتين وأصابعه القويـة الدقيقـة المفاصـل تعرف أسرار مـا تعالجـه في أحشاء السيـارات طيلة النهار، تجـوس فيها وتجسهـا وتظل تتحسس جـوانبها ومسـاراتها ومسـاكنهـا، وتـلائم بين أطـرافهـا وتـدق عـلى جـدرانها وتلحم المتفـرق من شعثها وحديدها، كأنها تعمـل لها «عمـلاً» أو تتلو عليها رقيـة حتى تهتز

بالحياة وينبثق الطنين في المعدن الموات وينبعث لـه هريـر وهديـر دفء منتـظم الإيقـاع. . يـداه لن تـطولا كنـزه الآخـر، يـداه مضمـومتان عميـاوان. والكنز تحت يـديه. يـداه لا تعرفـان بـاباً إليه.

ـ وهو فيه عينين تشوف غير الزفت الـلي بيحرق في قلبـه عمال على بطال ليلاتي على الله، آهي وكسة من كل ناحية وخلاص.

لكن ثم جانباً رخياً موطـأ الجناح في دخيلة نفسهـا، فيه رضى وأمن ونعمة. هنالك في ركن منها، صحيح، توق غامض وأمنية خفية، لو خلف الله عليها بولد، وخيبة صغيرة لأن ما جـاءت به بطنها بنت مكسورة الجناح. لكنها بنتها وحبيبتها وأغلى من الدنيا عليهـا. ولسـانها مـع ذلـك يلهـج بميلة البخت. . كـأنها تصـد العين، كأنها تعويذة تقولها بطرف اللسان حتى تداري قوة شريرة تتـربص بها بآذان متشوفة تتسمع وترهف السمـع، تنتظر لحـظة الانقضاض لتخطف ما بقي في يديها.

وأحست ما ينخسها في قلبها، شكة ثاقبة من خـوف أسرعت بهـا إلى الشرفة المـزحومـة المتراكبـة، تتخطى السـلال والمواعـين والقفف لترشق الحارة بنظرة عجلى ملهوجة.

كانت الصغيرة قد خطفت السلالم المترية الموحلة بمـاء الغسيل وتخـطت العتبة الحجـرية القـديمة التي تـآكلت ونعمت أطـرافهـا وانغرز جانبها في تراب الحارة.

ودلفت تجري، مستوفزة فرحة بقرشها، كنزهـا الصغير يـدها

تعرق عليه منذ الآن، من الفرحة والتشوف. ونفذت من جنب لوحة العيش على حافة الرصيف الضيق، وانفلتت من بين قفف العلاف المرصوصة، في عتمة العصر، بأكوام ملونة من العدس الأصفر والرز والبرغل والذرة.

وهي تشب الآن أمام دكان السجاير، تطاول الواجهة الزجاجية المتربة وترفع يدها بالقرش. تعلقت عيناها بالمسرجة الصغيرة الموقدة أبداً بلهب ضئيل احتاط عليه غلاف علبة «بلمونت» حمشت النار أطرافه فاسودت، تنبعث له رائحة شياط خفيف مستمر.

تسحرها دائماً هذه الشعلة الضيقة المدخنة التي لا تنطفىء ليل نهار.

ـ أيوه يا شاطره ساكتة ليه؟ عاوزه إيه يا ست الحسن والجمال إنتِ؟

كان قد اختطف منها القرش قبل أن تتكلم، فأفزعتها فُجَاءَةُ حركته وضراوتُها وخشيتُه أن ترجع عن عزمها.

ـ مصاصة..

ـ عينيَّ حاضر..

وهو يدفع بيديه وسط أكوام الثروات اللامعة في الورق الناعم الملون، والأواني الزجاجية التي تحتشد فيها كل الأشياء الحلوة في العالم. وقد تحيرت البنت وتلدد قلبها من الرغبة في أن تضم إلى صدرها كل هذا، حفنات حفنات. وغشيتها الأزمة التي تعتورها

في كل مرة تأتي إلى باب هذا الكنز ثم ترتد عنه وليس في يدها إلا نتفة صغيرة من أطرافه لا تتحيف منه شيئاً كأنما لم تمسسه قط ولم تقف ببابه. سرعان ما تنجاب عنها الغاشية إذ ترجع إلى الحارة ومعها ما اقتنصته لنفسها، فإذا هو العالم كله، حلو الآن كطعم المصاصة التي يتحلب سكّرها في فمها المضموم. أبطأت خطواتها أمام دكان العلاّف وظهرها الجاف النحيل يحتك بالقفف اللينة وما فيها من أكوام مطواعة هينة الجوانب. وعيناها تجولان على راحة وفي مهل وباستمتاع بين المشاهد الدسمة المليئة حواليها. على مهل، فليس هناك ما يعجلها. شفتاها مزمومتان تحتاطان بالجسم المدور الأملس الذي يشر بالحلاوة في جوانب فمها، عيناها مشدودتان مزويتان من المص والمتعة، تلفان في تؤدة وفي غير توتر، بين جنباتٍ عالم لدن طري، على دكاكين العجلاتي والزيّات وبيّاع الفول والموقد المشتعل يفح في الشارع أمام باب النجّار عليه كوز الغراء تفوح منه رائحة الصمغ الثقيل والتراب وعطر السكّر الرخيص وشوب النار.

ارتفعت عيناها إلى المئذنة الضخمة الشاهقة، والنقوش البارزة عليها مترية عتيقة ولكن راسخة يتحدد بها نسيج السماء الأزرق الصافي الذي خلا من سطوع النهار، وبقيت فيه وضاءة عميقة، وشرفات المئذنة تعلو متدرجة بأضلاعها الرشيقة تلوح كأنها مركبة على السماء لا انفصال بينهما.

وهي في الشارع المزدحم، مسنودة إلى الحائط الحجري القديم، وقد نسيت كل شيء إلا هذه اللذة الهادئة الآن بعد

عنفها الأول تقطر حلاوة بطيئة في فمها، وقدمها الحافية تفحص التراب الهين على صخر الرصيف. ثم دفء نهار انقضى يتسلل من حجر الحائط إلى عظام ظهرها الهشة من وراء الفستان القديم. وعيناها سارحتان متعلقتان بالمئذنة وفي حسها حضور غامض لأبيها، فارعاً طوالاً راسخ القامة عالياً.

بالأمس أعطاها قرشاً اشترت به «كراملة». بالأمس استيقظت في الليل في عالم مضطرب مهتز وأحست كيانه القوي المتين جنبها، بينها وبين أمها على سريرهم الحديدي الوحيد. وفي نوم ليس كاملاً، بحركة كأنها الحلم، ابتعدت عن الحائط والتصقت بالظهر الشاهق ورمت بذراعها الواهية على الهيكل المتمكن في نومته يملأ دنيا حلمها تتردد فيه أنفاس منتظمة. وعادت إلى نوم مريح وقد سكن قلبها تبتسم من الأمان.

رأت من باب الجامع شيوخاً يروحون ويجيئون في الطرقة المبلطة النظيفة يتحركون ببطء كأنهم في النوم أيضاً، رؤوسهم عارية يلبسون قباقيب وجلاليب بيضاء في العتمة الخفيفة، ويأخذون الماء، في كوز مندى، من الزير المدور المركون جنب الباب.. «الله.. أكبر.. الله أكبر» المئذنة ينزل منها صوت بعيد يشدو بدعاء طويل كأنما لا أمل فيه وفيه نشوة بالشكاة وراحة إليها ومعرفة خفية.. وزحمة المغرب في الشارع الضيق، أخذت تلمع فيها أنوار مضطربة وضجيج مختلط من صلصلة أجراس العجلات وغناء البياعين وصيحات بائعي الزبادي البيتي وتنغيمات الشحاذ وهو يقطع الشارع من وسطه كأنما الدنيا كلها

ملك يديه، وفي يده ولد يردد بنغمة رفيعة ملحنة «عليك يا رب. . عشانا عليك يا رب. . الأجر والثواب عند الله يا محسنين».

والضجيج البعيد المضطرب يجعل الغرفة الضيقة تموج بالخوف والوحشة، حيطانها تتباعد وتنفتح بينها مسافات لا آخر لها. صيحات أبيها الغاضبة تأتيها من آخر الحلم، ودعاء الشحاذ وترديد الولد «عند الله يا محسنين». نحن في المغرب أو في الفجر؟ نداء لا ينتهي يجيء من وراء خصاص الشباك «يا. . غورت. . الله أكبر. . يا. . . يا محسنين. . أكبر» فتدفن رأسها في المخدة وتحس السرير يرتعش ويصطك تحتها وتغمض عينيها، تزيد من إغماض عينيها عن عمد، بشدة، كأنما بذلك تحجز نفسها عن السمع. وأمها تحبس البكاء في ركن بعيد من الأبعاد التي لا آخر لها. وهي تغوص في الليل المليء بالظلال والأصداء المتحركة القلقة.

وتفتح عينيها في العتمة، على اهتزاز السرير، ويتجمد جسمها على الفور ويتوتر. إنها ميتة. وتسمع في الظلام وفي موتها وشوشة وهمساً حاراً وأصواتاً فيها لذة كأن أحداً يستقطر بين شفتيه حلاوة مصاصة. هي ميتة، ميتة. وتضغط على عينيها حتى لا تنفتحا، فإن الميتين يكونون مغمضي العيون لا يتحركون أبداً متخشبين. وخشب السرير يهتز على أمواج رتيبة. وفي موتها المضطرب المغلق العينين تسمع شكوى طويلة «الله ـ أكبر. . . الله. . أكبر». هل يجدونها في الصبح ميتة؟ وتولول أمها وتدق

خـدودها وتمـلأ الدنيـا بالصريـخ؟ سيجدونها ميتـة في الصبـاح. والشيـوخ البيض الجلاليب سيصبـون الماء الـدافىء من الزيـر على جسمها العاري، بالكوز. ماء ساخناً على جسمها العاري الممدد على البلاط في طـرقة الجـامع، والهـواء تحسه بـارداً على جلدهـا المكشوف، يهب عليها من الباب.

ـ مادا.. بت يا مادا.. مصاصة أنا تمان.. عاوز مصاصة.

التفتت إلى الشيء الصغـير الذي يتـوثب جنبها ويشـد يـدهـا المرفوعة إلى فمها بالمصاصة. وعلى وجهـه الملطخ بالـتراب خيوط نظيفة من دموع ما زالت تتقطر من غير صوت.

ـ يوه ما لك يا ولد يا محمد؟

ـ نديّة، خالتي نديّة ضربتني..

يحكي عن حدث مضى، بسبيله إلى الاختفاء منذ الآن.
تأملته في غير عطف، دون قرابة.

دائماً تضربه نجيّـة زوجة خـاله وتـطرده لأنه يلعب في الـراديو وينحشر في الشباك، ويعطّل عليها. وتنقلب الدنيا بينها وبين أمه نفيسة، وتثور عركة ترتفع لـرب السماء. لكن الـدموع تتسلسـل من عينيه دون بكاء وما زال يشهق بانتظام.

ألقت ماجدة بذراعها على كتفه الصغيرة الواطئـة تحس نفسها قـوية عـالية. وتحسـه يحتمي بها، عـظامـه الـرقيقـة في الجلبـاب الفضفاض تهتز ما زالت من شهيق البكاء، يستند إليها كـأنه من خرق طرية لا تعرف الرفض.

وهو يتطلع إلى ما في يديها من حلاوة تعوضه عن غضبة العالم وضجيجه.

وانفتح في نفسها عمود مندفع من ماء الحنان يفيض على الوجه الذي يرتفع إليها وضيئاً بالثقة.

فأعطته المصاصة منداة بعد من ريقها كما تعطيه جزءاً من نفسها.

وتململ الولد تحت ذراعيها وتفلّت منها واستدار عنها قليلاً، وقد استغرقه مص الحلوى التي كادت تنبري وتنسل من خشبتها الرفيعة. شفتاه لهما حياتهما الخاصة ولغتهما الخاصة من التلمظ والتذوق الجشع مزمومتين رقيقتين متحركتين. شفتين مدربتين حديث عهدهما بالثدي الذي ينز بأمل قليل وعذوبة عصية على الإستنباط. ولاح لها أن وراء هاتين الشفتين ثمّ سنتين ناتئتين تضغطان من الداخل على جانب اللحم الحي الذي يستقطر السكّر ويرتعش باللذة.

ـ يا ما.. جدة.. يا بتّ يا ماجدة يا بتّ.. هي البنت اتخسفت فين يا خواتي؟ هو أنت اتربطتِ خلاص يابتّ أنتِ في الحارة؟ يا بتّ يا ما.. جدة.

وجه أمها مطلّ عليها من الشرفة الضيقة الملتصقة بالحائط، مدورتها محبوكة على رأسها، اللهفة والخوف يتنازعان قسمات الوجه الأسمر المضيء في قتامة المغرب، خزيانة من وجهها المكشوف في الحارة وصوتها على ذلك يتمدد ملء المغرب بدفء

أنثوي كثيف لا تمتلىء به إلا أصوات الأمهات الشبعانة بالأمومة.

ثم إذا هي فجأة وحيدة.

الحائط الذي كانت تستند إليه بعيد عنها، وما حولها فراغ.

وأدركت دفعة واحدة، أحست لحظة واحدة قبل أن ترى بعينيها، أن الولد قد ذهب، أنه تسلل من جانبها، أن ذراعها لم تعد ترتكز على هيكله المشدود، أنه لم يعد محتاجاً إليها. إن أحداً لم يعد محتاجاً إليها.

ثم التقطته عيناها، دون بحث، كأنما كانتا تعرفان لوحدهما الاتجاه الذي انسل فيه الولد دون أن ترياه يجري بخطواته القصيرة المتلاحقة وسط الحارة بين زحمة الناس المتدافعين، وجلبابه الأبيض الطويل تتعثر فيه قدماه الحافيتان المتداخلتان وهو يتخايل مبتعداً بين العتمة والأنوار.

تحجرت رجلاها في وقفتها، لم يخطر لها أن تجري وراءه.. وباستطاعتها أن تلحقه في لحظات. كأنما أنستها الخيانة مقدرتها على الحركة وأحالتها عموداً من الملح.

ولأول مرة أحست يدها صفراً خاوية وفي صدرها فراغ هابط الغور ليس له قاع. كأن الرضة التي صدمت قلبها شلته أيضاً. وقد جف ريقها، وفي فمها طعم الخشب. الضجيج حولها يبتعد بسرعة ويهبط إلى طنين يأتي خلال طبقات مسدودة ثقيلة من تحت الأرض. وبيوت الشارع تسقط مرة واحدة والمئذنة العالية تميل إلى الوراء مع كتلة حائط الجامع كله، الجدران والدكاكين

والأبواب الصامتة تفترق وتهرب منها. وحدها، هي وحدها. عيناها جافتان مشدودتان إلى النقطة البيضاء التي تجري هاربة منها في الزحمة تحمل شيئاً لا عوض عنه.

وأمها مائلة إلى حاجز الشرفة، قلبها مشدود من هذه الصدمة الصغيرة المضحكة التي أصابت البنت. خطف الولد منها مصاصتها وجرى. مضحكة هذه الحكاية. لكنها تعرف أن هذه القطعة الصغيرة من نفسها، واقفة هناك بجمود في الشارع، إنما ترتعش الآن بما ينبض به قلب واحد ممدود داخل الأجيال جميعاً وعبر الناس جميعاً أطرافه مشدودة حتى آخر فتائلها، مغروز على مسامير، مفتوح في الهواء، ترتعد شراييه العارية الرقيقة بالدم السخن تخبطه صدمات لا تنتهي، ويظل يرجف حياً.

وهي تستند بكوعها إلى الحاجز الخشبي، والشباك إلى جوارها فيه تلك المرأة جنب الراديو الذي ينصب منه غناء طويل رخيص البكاء.

نسيت خجلها وأنه عيب أن تظل مكشوفة الوجه في الحارة، واعتمدت خدها بيدها وعيناها هي أيضاً معلقتان بالولد الصغير الذي هرب منها، أخذ المذاق الحلو من فمها وجرى. كان قد تسلل يستشرف النظر إليها ويشد يدها. وابتذلت له قلبها واحتاطت عليه بذراعيها وحضنها ترعى ناراً صغيرة تشتعل في عينيه الضيقتين، تحترق بها أطراف نفسها. وعطيتها له متعة لها مع ذلك وسعادة. لكنها الآن يتدافع بها الناس في الزحمة.

يـداها لن تنضـما عليه قط. ذراعـاها لن تلتحـما أبـداً حـول أركان جذعـه العضِل الشـامخ. بـل تقصران عنه وتسقـطان إلى جنبها. رجولته وعقوقه واستغناؤه تهزم امتدادها إليه.

وهي تنهدّ وتسقط في الداخـل. صلابـة الأرض تتلقاهـا وقد غـاضت من جسمها كـل عصارة. الحصـيرة تـرتفـع إلى لحمهـا فتصده بخشونتها وتوقف انهياره بثباتها الذي لا يـرتج. والـظلمة في الحجـرة الخاويـة تنبثق فيها ظـلال قـويـة من أعمـدة السريـر الحـديـدي في أركـانها الشـاهقـة تسـد السقف الـذي يتصـاعـد ويبتعـد، إلى أعلى في الـظلام، وما زال يبتعـد، في سـماء قـاتمـة تـرتفع بسرعـة، وحـواليهـا أثـاث حيـاتهـا الـرث، وآنيـة حبهـا وحبـوطها مـائلة على جنبهـا مثنية الأطـراف. تحتاج إليـه. تحتاج إليه. هي تحتاج إليه.

لكن البنت الصغـيرة لا تحتاج إلى أحـد ولا إلى شيء. وجهها الصبيـاني فيه كـبرياؤه. وهي واقفـة في الشارع، بعيـدة. سـوف تعود لأمها بعد قليل وسوف تجد عروستها. وأبوها سوف يرجـع آخر الليل، ويعطيها في الصباح قرشاً، وعملة صغيرة أخرى من الحب، لكنها ليست بحاجة إلى شيء. وهي عندما تنظر إلى آخر الشارع ليس في وجهها نضوج، ليست فيه خبرة وليست فيه حتى نعمة النضارة ونعومة الطفولة. ولكنه ليس متوتراً بل فيه فـراغ، شـاحب قليلاً أبيض في العتمـة، تحت شعـرهـا الأسـود الكثيف المسرّح. وجه أمسح، خاو، جامد ليس فيه دموع.

آخر السكة

حِسّ الرمل تحت قدميه، هش، طري، به بلل من المطر الذي ظل يسح هيناً طوال بعد الظهر. وإلى جانبه يرتفع سد من الأحجار البيضاء الضخمة، تلوح رمادية مفتتة السطح، من ورائها أغصان أثيثة داكنة. وقطرات ثقيلة من الماء تسقط، من الشجر المتكاثف المشبع بالرطوبة، على الحجر، وعلى رمل الطريق الضيقة، لها وزن أصم يتبدد بصمت، في عتمة المساء، لا يخفف منه هواء البحر الذي يكتسح البيوت في هبات مفاجئة، به طعم الملح. وهو يرفع ياقة معطفه الجبردين على مؤخرة عنقه، يحس تحت شعره دسامة العرق القديم وندى البلولة الجديد، يحتمي من هجمة الهواء، وسقطات القطرات المشبعة من على الأوراق المعتمة الخضرة.

والطريق تنحدر بسرعة. وتنفجر خبطة مصراع نافذة على حائط، في السكون، بفرقعة. فيرفع عينيه إلى أنوار خافتة تتخايل وراء الزجاج المغبش في النوافذ الصغيرة العالية وتكشف عن متاع الحياة اليومية الرث في الغرف المكظوظة الموحشة بمقدم الليل. داير السرير الدانتلا الأبيض الكابي، على قضبان حديدية

سوداء رقيقة معوجة، صور باهتة من مجلات، مثبتة على بياض الحيطان، مصباح عريان عشرين شمعة مدلى من السقف بسلك رفيع ساقط باستسلام، دواليب مائلة مثقلة بالحقائب والكراكيب.

وحركة جسمه المنحني إلى الإمام تتزايد قوة واندفاعاً بانحدار الطريق إلى سلالم المحطة، وكأنما استراح من مضضه باقتراب أنوار كوخ المحطة الخشبي، يحيط به أفريزه المشبك على نسق أرابيسك مبسط، يشع النور من خرومه الهندسية. وهو يراه من فوق. والقرميد الطوبي اللون يلمع من البلل وتتعلق بأطرافه دانتلا أخرى ثقيلة من قطرات ماء تتشبث بحافته لا تريد السقوط، بعناد واهن ولكن لا ينهزم.

وهو ينحدر على السلالم العريضة، المغطاة بالرمل، إلى رصيف المحطة، أخيراً. والقهوة القريبة على الرصيف مغلقة الزجاج، دافئة من الداخل، كثيفة ببخار الأنفاس والدخان. وخطوط الترام تمتد سوداء، متألقة بقوة خاصة فيها، بطاقة كامنة نائمة ولكن متحفزة، تنتظر العجلات المدوية المفرقعة لتنبثق منها دفعات الانطلاق إلى عالم آخر جياش، مزدحم، مفتوح ومنير.

تأخر الترام.

وليس على الرصيف أحد غيره في هذه المحطة التي تشتعل أنوارها له وحده، وقد أوى إلى الركن الخشبي الذي تفوح منه رائحة عطن قديم ابتعثته الرطوبة وهواء الليل. وجفاف

الـرصيف الصلب تحت سقف المحطة يـرضي حس قـدميـه تحت جلد الحـذاء المبلل. وليس في الجو بـرودة، بل شتـويـة أكتـوبـر ونعومة سماء المساء المبكـر، العذري، مـا زال منيراً بـوهج محمـرّ توشيه دكنة السحب الجهمة المقطعة التي يجري بها الهـواء سريعاً صامتاً في مدار آخر. ونجمة وحيدة مشعـة تجري مـع السحب، تبدو وتختفي، تنسرب في بهجة حميمة مغلق عليها.

وأخيراً جاءت القرقعة البعيدة التي تؤذن بمقدم الترام، يقترب بسرعة مليئاً بشحنة مكتومة، والنور البنفسجي الكابي في مقدمته يتـألق ويكبر، والكتلة العلويـة الضخمة فـوقه كـأنها آتيـة قبله، مطلة من فوق، مسدودة، تنذر بتهـديد غـير مبرر، والأنـوار من نوافذه تتحرك على جانبيه بسرعة على رمل السكة، وتتعاقب على جانبي الطريق المتحدرين تحت حيطان البيوت وأشجارها.

واقترب الترام، بضجيجـه ونوره، في أول المسـاء، بما يحمـل من وعد متفجر. لكنه لم يتحرك، كأن إرادة أخرى تفـرض عليه وقفته الجامدة في المحطة. وغض الترام من اندفاعه، وعـبرت به قامة السائق وهو يدير عجلتـه فيوقف القـرقعة ويحيلهـا إلى دقات معدنية تصلصـل وتتتابـع في بطء، ثم إلى هديـر أخير، ونشيش يهبط إلى زفـير نهائي مـرتـاح، وينفشيء إلى صـدمـة الانقـطاع، والتـوقف الكامـل، وسكتة لحـظة الصمت. والهدوء تنبعث فيـه فجأة أصداء القهوة وحفيف ورق الشجر في السكون الفسيح.

ومن السلالم إلى الرصيف، نـازلة بسرعـة، تندفـع. رشيقة،

خفيفة، إلى سلم الترام تتعلق به لترقاه بخفة. والهواء يطير بجانب سترة البلوفر الملقاة على الكتف المدورة الرخصة المليئة، ويدها، بحقيبتها الصغيرة، تمسك بالجانب الآخر من البلوفر تضمه إلى ما تحت صدرها. ونور الترام يشعل شعرها السبط البني المتوهج المتناثرة منه خصلةٌ طائرة على جانب الوجه الأبيض الغامض المعالم.

نعمات، جاءت في اللحظة الأخيرة.

وانفك على الفور توتر مقبض كان يثقل دماءه، ووجد نفسه، دون أن يدري، على سلم الترام، معلقاً بالحاجز الخشبي الأملس الزلق، قدمه على الحديد الأسود اللامع، وقدمه الأخرى فوق، على خشب الترام، يكاد يحيط بها بذراعه، قريباً منه نفحُ ملابسها وجسمها. هذا العبق الحميم الخاص الذي لا يكاد يتميز فيه رائحة ما، ولكنه هناك، فيه نفس ودفء يعرفه معرفة وثيقة مباشرة، يتغلغل فيه، كأنما هو ينتظره في كل مسامه الداخلية البعيدة.

ويمد يده فيفتح لها باب الترام الزجاجي، وتدخل بحركة تلقائية دون أن تستدير إليه، وما زالت تنهج من سرعة اندفاعها لتلحق بالترام، ولكن شيئاً ما يدفعها إلى النظر وراءها: يده الممدودة على الباب، توتر حسه بها، البهجة العارمة المكتومة تضج بها دماؤه داخل أسوار الجسم، ترجيه الصامت باللقيا بعد جمود الانتظار، شيء ما دفعها للالتفات بسرعة. صدمة المفاجأة، وانفتاح التعرف، وبهجة الانتصار السريع باللحاق بما كانت

تجري وراءه، والعثور عليه في وقت معاً، والامتنان للمجاملة إذ ينفتح لها الباب. لعل ذلك كله، وغيره، قد نزع قناع الوحدة عن وجهها اليانع الحلو، وأزاح صلابة الصمت والانعزال، فتنهمر ملامحها كلها في ابتسامة المفاجأة والفرح، وتستضيء، وتسطع بإشراق جديد، كأنها وجه جديد:

ـ الله.. شوقي.. أنت هنا؟ كنت فاكرة نفسي متأخرة.

ـ طيب نقول مساء الخير.. السلام عليكم.. بونسوار أولاً..!

ضحكتها المرحة، فيها ألفة قديمة، خافتة وغضة وأنثوية، وفيها لمسة من شقاوة ومعابثة:

ـ مساء الخير يا سيدي. السّلام عليكم.. بونسوار أولاً.. أمرك.

بهمس، حتى لا يسمعها الركاب الآخرون الذين يثبتون عليهما نظراتهم المستطلعة، الجهمة، كأن فيها منذ الآن تقريعاً وتأنيباً وإدانة، وهما يشقان طريقهما، وهو يصطدم، مع تأرجح الترام، بالقوائم الحديدية اللامعة في الممر الضيق، حتى يصلا إلى الجلد البني الداكن، تحت زجاج نافذة ما زالت تهمي عليه قطرات متسايلة صافية، من الخارج.

وجلس إلى جانبها، في حرج طفيف من الاستقرار والاستعداد للرحلة القصيرة، تحت أنظار الناس. والكمساري يتجه إليهما، كأنهما هدف، وعليهما ـ عليه هو على الأخص ـ أن

يتخلص من أسار هذا القصد، هذه النية التي تحيط بهما. فيدفع للكمساري الثمن، وتخرج هي بطاقة اشتراكها بصمت من حقيبتها، ويقف الترام، وتنطلق الصفارة، وتقرقع العجلات، وينطلق الحديد والكهرباء في زفيف على خط الرمل الطويل، في غبشة المساء المتزايدة، ولا يركب أحد، فتنفرج دائرة الحرج والضيق، ويخف ضغطها. ويحتدم حسه، مع هزات الترام الرتيبة ووقفاته واندفاعاته المتلاحقة، بوجودها إلى جانبه، قريبة جداً. جانب معطفه يمس ساقها المسحوبة الرشيقة، وهو دفآن في حسه بها، على الجلد القديم الوثير، ذراعه المتوترة في كنّ جاكتتها الملقاة على كتفها ناعمة الصوف نعومة جزءٍ من جسمها، وصدرها يثقل البلوفر الخفيف الطري بلدونة خصبة لا يكاد يتضح معها الحز الداخلي المستدير، وهي تهز رأسها وتفتح حقيبتها لتمرر المشط بسرعة وخفة في شعرها الأثيث وتلتفت إليه بنظرة مسترقة مخطوفة كأنما تدعوه أن يتكلم.

ولا كلام عنده، في زحمة الضجيج الذي يمور بداخله بلا لغة.

عيناها، عيناها الغريبتان، نافذتان على عالم أجنبي، بلونهما الأصفر الصافي، مترقرقتان، واسعتان، قطرتان من ماء أجاج على زجاج لامع، والخط الأسود الرقيق على الحافتين، والظل الأسود الخفيف على الجفنين. ماذا تقول العينان؟

ـ عندك الليلة شغل كتير؟

تريدهُ أن يتكلم، لكنها لاتقول شيئاً.

ـ أبـداً، تلات أربـع ورقـات تحـاليـل، أخلص منهـا وأروح للمحامي، بعد إذن سيادة الدكتور.

ـ لكن سيـادة الـدكتـور مش جـاي الليلة، أو يمكن ييجي متأخر.

ـ بركه يا جامـع. أهرب نص سـاعة وأرجـع. ولا من شاف ولا من دري. أنت سمعت حاجة؟ عرفت حاجة؟

ـ بس بقى.. مش حتبطل تزويغ.

هـل هي تعرف شيئـاً؟ هل سمعت أحـاديثهـا في التليفـون؟ وهل سمعت أحاديث النـاس ولغطهم؟ بـلا شك. نعم، إنـه لم يقل لها شيئاً صراحة. وهـو قد خلع الخـاتم من زمان. منـذ أن انجابت نشوات الأيام الأولى، واضطرابـاتها، ودفقـات جنونها، وهي تعرف أنه يعيش وحده مع أمـه وأخواتـه، بل تعـرف أيضاً بيتهم من بعيد. لكنها تمسك أيضاً بيدها كل الخيوط، ولا شـك أنها عرفت قصة زواجـه ونزاعـه وانفصالـه، وهي على التليفـون تستطيع إذا أرادت أن تسمعـه يطلب المحـامي ويناقشـه، ويتفق مع الوكيل على المـواعيد والإجـراءات، وتستطيـع أن تستخلص لنفسها الحكاية كلها. ومرة واحدة سمعتها مباشرة عنـدما طلبتـه من الخـارج ـ على أنـه قد حـذرها الاتصـال به عـلى أي نحـو ـ وصوتها الأنثوي الخشن العنيف. وعاكسته يومها، في معاتبة تبدو بريئة كـل البراءة، لكنـه لا يعرف إن كـانت محملة بالتضمينـات

والتلميحـات، حـولت إليـه الخط، وبعـد أن أنهى مكـالمتـه الصاخبة:

ـ الله الله يا سي شوقي، مكالمات خصوصية في الشغل؟

هل استرقت السمع يومها، من على مكتبها من وراء الحاجـز الزجاجي؟ كانت العيادة مزدحمة بـأصحاب التحـاليل، غـائصين عـلى مقاعـدهم العتيقة المشققـة الجلد في المدخـل المعتم المـترب المرتفع السقف. وبعد انتهاء المكالمة خـرج وفي يده ورقـة متعللاً بأنه يبحث عن التمرجي ليعطيها له، كأنما هي ورقة مهمة بنـوع خاص. وكان الدكتور في المعمل أمام أنابيبه العكرة ومواقده التي تئـز بنار محـددة كاشفـة، وقـواريـره المليئـة بـالسـوائـل الكثيفـة والصـافيـة. ونـظرت إليـه من وراء الـزجـاج، وهي تـرد عـلى التليفون، نظرة غائبة، ورفعت الخط وأوصلت الفيشـة بحركتهـا التقليـدية الكفـء السـريعـة، حركـة بنت تعرف شغلهـا وتجيـده وتنفذه بفعاليـة تامـة ولو كـانت مغمضة العينـين، ليست هناك. ولكن هـذه النظرة البعيـدة، ونـور الصبـح ينعكس من النـافـذة الجـانبية عـلى العينين الصـافيتين، الخـاويتـين، في هــذا الاتساع الأصفر الموحش الـذي لا يطرف.. هـل سمعت؟ التوسـلات، والتهديدات، والـدموع، والاستنجـاد بالـذكريـات، وابتعاثـات حنان ضائع، والتعلات، وبكاء ندم لا يعرف ولن يستطيـع أبداً أن يعرف إن كان حقيقياً أم مرتجلاً من وحي اللحظة ـ فهـو حار وموجع ولكنه أيضاً قُلَّب وخِتـل، هذا يعـرفه.. وعليـه أن يسد قلبه أمامه، وإلا فلا نجاة. وألجأته في النهايـة أن يقفل السكـة،

بعنف، واحتدام مكتوم. فهل سمعت الحكاية كلها؟ حكاية توجع القلب. ولكنه سيخلص منها قريباً. وأحس آهة الكمد بعد أن أفلتت منه. لا بأس، المحكمة سوف تحدد لها النفقة، وينتهي، ينتهي. وقد أعطاها كل شيء، أثاثها الذي اشتراه هو بسهر الليالي وألم الكتفين وانكسار الظهر وزيغ العينين من الدق على الآلة حتى الصبح، شهراً بعد شهر، بلا نهاية. و «ورقة الضد» على نفسه حتى تأمن على نفسها، وصورها أيضاً وخطاباتها الساذجة من أيام الغزل الأولى القديمة الغارقة في القدم، كل شيء، فساتينها وملابسها وقمصان نومها. قشور النايلون الملونة التي طالما أماطها عن ثمراتٍ دبّ إليها العطب فلم يعد فيها إلا لحم مهدل نضبت عنه سلافة المحبة والتواصل. كل شيء أخذته معها، وأخذت معها جذاذة ضخمة مزعتها أيضاً من حُرّ نفسه ومن أطيب أجزاء عمره. أتندمل قط هذه الفجورة الغائرة في لحمه ويرمّ الجرح الذي نغل وضرب؟ أيجف أبداً قطْر المرارة والصديد والدم المتخثر بالعراك والمشاحنات؟ وما الجدوى الآن؟ سممت أيامه، وطينت بالوحل عيشته، نعم، وعليه الآن أن يظل يدفع الثمن، ثمن شهوته وشفقته، وجنونه وتمرده، ومتعته المعجونة بالجسد الملوث الوثير. وقد دفع، دفع، فهل يخلص أبداً؟

ـ إيه ده كله؟ اللي واخد عقلك يتهنى به.. وصلت لحد فين؟

لن يعرف أبداً ماذا تقصد بهذه الكلمات، وما يشبهها. دائماً تنكشه، وتخزه، بلهجتها التي تبدو مجردة مستقيمة عارية من كل

كثافة ولكنها تحمل ثقلاً. لن يعرف أبداً ما رسالة هذه النظرات، هذه الضمة للشفتين الرقيقتين الرفيعتين تغلقهما على كلمة لم تتخلق بعد، أو لا تريدها أن تتخلق، لا تريدها أن تتخذ لنفسها صوتاً يعطيها القالب والنهائية فيستطيع أن يواجهها، أن يتعامل معها، أن يمسك بها، ولكن أهذه الكلمة هناك؟ أم هي وهم في ظنه وحده.

وفي سؤالها نبرة حنو لا يمكن أن يكون متوهماً، جرْس طيب أموي يبره وينحني عليه مهما كان فيه من دعابة ومعابثة. واصطدمت يدها إلى جانبه بيده. بعفوية؟ صدفة؟ لا يعرف. لا يعرف. لكنه يحس هذه اللمسة التي طالت قليلاً ـ لحظة واحدة أكثر مما قد يكون عادياً وتلقائياً وعفوياً ـ لمسة يدها بيده من على «الجيب» الصوفي الثقيل الوبرة، من على الاستدارة المليئة. هل فيها ضغطة خفيفة مقصودة مرت كاللمحة، واختفت؟ أم ليس فيها شيء؟ ما معنى هذه الاصطدامات العذبة التي ما تفتأ تتكرر؟ هذه اللمسات التي تجيء ـ دائماً ـ كأنما عن غير قصد؟ مس الأصابع الرقيقة المرهفة العظم، في زحمة النهار، والعمل، والمواصلات. مرة عندما يعطيها ورقة تحليل، كأنه يهبها شيئاً ثميناً وكأنها تتلقى الهبة. وعند صعود السلالم، صدمة اليد باليد على ثنية البطن الطرية، خطفة زمن هاربة، على مشارف عالم مليء بوعود نشوة مصفاة. وحس النهد الطيع على ذراعه عند المرور في طرقة ضيقة، لمسة لا تكاد تحسّ لكنها خصيبة، ووثيرة. عابرة ولكن كأنها لا تحدث في الزمن، ونظرة معها فيها دهشة

وسؤال ورضى وعمق لا يسبر غوره. . ما الكلمة التي لا تريد أن تنطلق؟ ما الرسالة التي لا ينفك رمزها؟ أهناك كلمة ورسالة؟ نعم، نعم، كلمة مركبة، ومعقدة. أين المعمل الذي يحللها فيه، وأنبوبة الاختبار الدقيقة المستطيلة التي تستدير ببطء على لهب «بنسون» يلعق زجاجها ويرسب أملاحها ومعادنها من تحت المياه الصافية الخادعة؟

والترام يمضي في عشوة الليل الزاحف، مندفعاً بزفيفه وجلجلته، بقوته الخاصة المتفجرة، مغلقاً على نفسه، يشق طريقه على القضبان الحديدية القابضة، مشحوناً بطاقة عنيدة عمياء، يخترق السواد المجهول الحالك. والأنوار من نوافذه الجانبية تجري معه ترتفع وتنخفض وتستدير، تلاحقه وتنتصب فجأة على جدران الرمل المتصلب القائم على الجانبين، في أكمات قريبة مهددة، مشققة بخدود أفقية متعرجة خطتها مياه الأمطار وسفعات الريح عبر أزمان سحيقة، وتنبثق من الرمال بحبوبها وكراتها وخطوطها، حرشات صغيرة خضراء خشنة تسطع في النور بلون وحشي وتختفي بأوراقها الكثة الداكنة. وتنهار سدود الرمل وتتراجع من على السكة لينفسح الليل عن براح مفتوح معتم، البحر بحضوره الغامض على مقربة، أنفاسه الرطبة بملوحتها المبلولة تهب على صهاريج البترول: ضخمة، مستديرة تلمع بألق معدني باهت البياض، جاثمة تحت سماء قاتمة، أثداء هائلة راسخة على ضلوع الأرض، كاملة الاستدارة، صلبة، تختزن العصارة المعدنية التي تغتذي منها المدينة وتدر لبنها الحريف

الرقراق في الشرايين الظمأى إلى الطاقة والقوة العمياء، ينطلق منها ألف حريق صغير مجنون محصور، كل لحسابه وفي طريقه المرسوم، على مسارات التوفز والتوقف والانطلاق، كل في حدوده، ترقبه عيون ساطعة حمراء وصفراء وخضراء، تشق جسد الليل بألف جرح محسوب، متفجرة كلها بالصراخ في ظلمة المدينة، شرارات تتوهج وتنطفىء، تتناثر منبثقة من مسام الجسد. ومياه ذهنه ثقيلة برواسب مرة الطعم، ملحية يمجها اللسان. لماذا الترام يختط هذا الطريق؟ أهذه شوتس.. المكس.. العصافرة.. العامرية.. القباري؟ هذه بلدته، هذه الإسكندرية، وخطوطها مرسومة على قلبه.. لكنه الآن لا يعرف أين هو منها.. ورائحة المدابغ الثقيلة الهاجعة تسطع، ثاقبة تنفذ إليه من شباك مفتوح، جفاف صحراوي محمل بعبء نتن لا يطاق. سحابة ليلية تهب به من نفاية إفرازات الحياة، الجلود المشبوحة العفنة تنسلخ من حياة إلى حياة، عبر محنة الموت والمجزرة، وخباثة الذفر، مزقاً دقيقة ماكرة الصنعة منمنمة ملساء تحيط بالأقدام الصغيرة النضرة، وتودع فيها الأسرار الصغيرة الأثيرة، ومفاتيح العلاقات بين أيادي الناس، والرموز المخططة الصامتة بكل لغة، جلود الحياة المتفجرة الخشنة القديمة تغدو جلوداً أخرى مصقولة ملفوفة حول حَيَواتٍ أخرى مكتومة تجري في مساراتها.

ـ أبداً.. ما وصلتش ولا حاجة.. كنت سرحان شويه كده.. تعرفي امبارح ما نمتش لغاية الساعة أربعة الصبح.

ـ يا خبر. . ليه؟ خير؟ كنت عيان والا إيه؟

ثم استدركت، ولمعت عيناها بنورهما الأصفر:

ـ واللاالعيار تقل عليك؟ كنت في سهرة لازم. .

في لوم واتهام.

واحتدمت ثورة صغيرة محبطة في داخله، وحلف لها، وصدق هو نفسه حلفانه، ومر القسم والتصديق مرور غاشية تعكر ثقل صفو ما، صفو رازح الركود لكنه مستقر. وجدت في غرفتي كتاباً قديماً بلا غلاف، من مهملات البيت، في ركن الدولاب. كله حكايات غريبة، تلك التي يسمونها خرافات. حروب قديمة من أيام الرومان أو اليونان أو مثل هؤلاء الناس، من أيام الإسكندر والفرس، وأسماء أخرى لا أذكرها الآن. . عن عاشق ينظر إلى الماء ويتحول إلى زهرة نرجس. عن بنت تصبح شجرة. . والله ما كنت نائماً، لكني لم أكن مستيقظاً أيضاً. لم أكن أحلم، ولكن لم أكن أستطيع حراكاً، مهيض العزم، متجمداً، حالة عجيبة، لا، لا، لم أكن قد شربت شيئاً والله العظيم. صحيح. كانت هناك واحدة، كالغولة في الحواديت التي كنا نسمعها ونحن أطفال. تنظر إلى الناس، والحيوانات، فتصبح كلها، من نظراتها، حجراً. . والأشجار، وكل شيء، أحجار جامدة. كل ما تنظر إليه. لا يستطيع حراكاً. والعرق يتفصد مني، حتى النفس ما عدت أحس به، ولكنني كنت مفتح العينين، وكان في الغرفة نور، لم أكن أحلم، لكني لم أكن

أتحـرك، ولا أريد أن أتحـرك.. يـاه.. لم يكن الليـل يـريـد أن ينجـاب.. أبداً ـ يـا شيخ، لا بـد أنك كنت تحلم ـ أبـداً، أنـا متأكد.. هل كنت أحلم؟ أبداً.. هل هناك ما يحول بيني وبين الحلم؟ الشيء الوحيد الذي لا رقابة لأحد عليه، لا أحد يتحكم فيه، لا شأن لأحد به. كنت أنت يا نعمات ليلتها أمامي، راكعة عـلى الأرض، ينسـدل عليـك قميص نوم أبيض نـاعم النسيج، قميص سابغ ينزل من على كتفيك بانفساح، إلى الأرض، يخفي وراءه جســدك كله، حتى ذراعيـك يحيط بهــما كم لصيق، حتى الرسغين، وكـان ثمّ صوت تـدفق للمياه، تهضب وتتسلسـل في خـرير مستمـر تحت الأرض، كأنـه في غرفـة سفليـة، في الـدور الأرضي من البيت. حنفيـة مفتـوحـة منصبـة في مجــرى مـا، في الغرفة، كما ينصب ماء المطر على جوانب الشارع، ولكن الشارع هنا يجري في الـدور الأرضي من البيت، بين الحيـطان، في الليل، لا يهتم بـه أحـد. ورفعت إليّ وجهـك يـا نعـمات، في العتمـة، مشرقاً، أبيض. وقبلتك. شفتـك العلوية الـرقيقة انفتحت تحت فمي، والشفـة التحتية المكتنـزة، داكنة الحمـرة، في ضمة ريـانة ناعمة الملمس، ويدي حول عنقك الباتعة، المدورة تحت الشعـر الهش الأثيث، زهــرة رائعــة منبثقــة من الأرض. وأنــا أمص الرحيق، بشفة مكهربة، كـل الرقـة وكل المحبـة. كل العـزاء، وتيقـظت أرتجف.. وفي قلبي رقعـة فسيحـة من رضى شـامـل، مـرتاح، مـا أن استيقـظت حتى أخـذ يتحيف من أطـرافهـا قلق متـوفز، لاسـع الأسنان. كـأنني اجترحت إثمـاً ما، لا أفهمـه.

نعم، هذا هو الحلم. لكن قلبي دبَّاه وداراه وتحوّط عليه، كأنه لقيا يطمع فيها كل قلب. ماذا بقي منه الآن؟ خيط واه رفيع يتموج في قلب مياه ضحلة، لا لون فيها ولا كثافة. لكني بالأمس، لا، لم أكن أحلم والله، أبداً، كنت مفتح العينين، في الصبح وجدت نور الغرفة مضاء.. الله.. أما كلام فارغ صحيح. أنا عارف ما هذه الكتب؟ بلا غلاف، ولا عنوان حتى. ولكنها مؤثرة، تدير الرأس، كتب الناس القدامى هذه. لا بد أنه كان من كتب أبي. الله يرحمه.. أمنا الغولة، نظرتها تحول الناس إلى حجر..!

وضحك. كانت عيناه جامدتين، لا ضحك فيهما.

ـ إيه.. وصلت لحد فين؟

التفت إليها. وصلنا. وضحك، بسهولة فيها توتر خفيف، وهي تبتسم، عن أسنان غير مستوية فيها شتت محبب منفرج، عن رضاب لامع ـ لا حد لعذوبته، يعرف سكره ـ ابتسامة حلوة وغامضة وجذابة. وكانت عيناه تضحكان. كانت بيوت الأزاريطة العالية قد تراجعت، ومبنى هيئة الصحة العالمية بأعمدته الرومانية الجديدة، وسلالمه العريضة، ومئذنة جامع القائد إبراهيم العالية، وأشجار النخيل الهندي في الحديقة. واهتز الترام وهو ينحرف بسرعة في تفريعة خط المحطة، فألقى اندفاعه به بإزاء جسمها، لكي يستقر عليه لحظة، في تماس حميم صلب. ثم انطلق نحو وقفته الأخيرة في الضوء والحركة وزحمة

أول الليل. واضطراب الناس يهجرون القوقعة الدفيئة المضيئة بنور لدن ينصب بسهولة من مصابيح مستديرة هادئة، كاللبن الدسم، على الخشب الأكاجو الأصفر الداكن، على الجلد البني الطيع الغنيّ القتامة. وفي احتكاك الأقدام البطيء في طرقة الخروج الضيقة، والناس يدفعونه من الخلف، مد يده يسند ظهرها أمامه، وأصابعه تستقر لحظة على صفحة الكتف العريضة، تلقى مقاومة العظام الرقيقة المغلفة باليونة الناعمة، ويحس تحتها بالشريط المشدود على الظهر من وراء الصوف المنسدل المحبوك، وينفجر مجد المساء الأحمر في انفساح السماء على الميناء الشرقية، وقد عمق الشفق وازداد كثافة وخصباً، السحب المشتعلة أطرافها بنار لا لهب فيها، والبنفسج الداكن يتحيف أطراف النار المنهزمة. وهبة من هواء شات بليل على العرق الخفيف على وجهه، وهما يسرعان، ويلمان أطراف المعطف والجاكتة حول الرقبة والوجه، وينشقان مع ذلك نسمة تملأ الصدر، وهو يمسك بذراعها يعرف مرة أخرى ملاسة استدارته المكشوفة من تحت صوف «التوينز» الناعم، عارياً تحت الكم القصير للبلوفر، وحركته حميمة مختفية عن الأنظار، يساعدها أثناء المرور من أمام العسكري الممدود الذراع تتطاير الريح بالكاب الأسود القصير على كتفيه.

وهما يدخلان قوقعة زجاجية أخرى منيرة بنور مترب مراق على خشب مشقق عتيق. والمصعد يئز في طاقته الكهربية المشدودة.

كانت هي التي فتحت له الباب، بعد أن وقفت زنزانة

المصعد الحديدي، في طرقة بيتها الرثة، أمام جدار أصفر باهت مسدود يتساقط طلاؤه في بقع مبيضة حائلة، والباب الهش قشرة مهتزة واهنة القوى، وهي تنحني بعصبية الترحيب، بابتسامة صادقة، بأهلاً وسهلاً، لتنحي أحد أخوتها الصغار من الباب، وقد جروا جميعاً ليلبوا دقة الجرس ـ الذي كان قد بحث عنه، بحيرة، بعض الوقت ـ وهم يتزاحمون بين ساقيها وحواليها. وكان حر أغسطس رطباً، وهواء الطرقة مكتوماً. ونفثات من روائح أكل بعد الظهر ونوم القيلولة ما زالت معلقة بالحيطان والبيبان ودرجات السلم المعتمة غير النظيفة.. يوه. أوعى كده يا نبيل. استنى يا توني. مش عيب يا بابا، عيب، وهي منحنية تزيح الولد العفريت الذي يجري بين الرجلين، وتستقيم فوراً، فيعود انهمار صدرها الصغير بشمرتيه الناعمتين العاريتين ـ وقد سطع لعينيه، لحظة، طرياً، يهتز، في انحنائها ـ ويتخذ مكانه الآن في مستقره من فتحة البلوزة الخفيفة الواسعة الجابونيز. وعظام وجهها الأبيض تتحدد في عتمة الباب والنور من ورائها. ويفاجئه شريط أحمر عريض معقود على الشعر البني المسترسل الهش الملمس، القاتم الآن في انعكاس النور من خلفها، خيوط نباتية كثة دمثة، وتضع يدها لحظة في يده، وتضمها على أصابعه، رخوة، دقيقة، عصفور صغير ملموم ناعم الريش، وتشده بأهون حركة وأرقها إلى داخل الفسحة، وتسبقه، وصيحات الأولاد يتقهقرون متواثبين إلى المواقع الداخلية الحصينة وهم يتصايحون: ماما أبيه شوقي اللي بيشتغل مع أبلة

نعمات. ماما عندنا ضيوف.. ماما.. ماما.. يسوه طيب يا ولاد أهلاً وسهلاً. وحركة القيام من على مراتب الكنبة المريحة من أغوار المواقع الخفية لأداء واجب الترحيب في سهولة وطيب قلب.

وأخذت طقوس الترحيب مجراها المعتاد. في غرفة الصالون الضيقة، شهودها قطع الأثاث القديم والصور الزاعقة الألوان والمخدات السوداء المرسومة بالنخيل والجمال من ليبيا، وشمس بعد الظهر الحامية من وراء الستارة الكريتون المنقوشة بالورد الملون، وهو يتحدث إلى الأم عن حكاية الشهادة التي تريد استخراجها من البلدية. ويأخذ منها أوراقاً مطبقة مصفرة رقيقة الأطراف فيها عطن حائل لا يكاد يحسّ من طول بقائها في الظرف القديم بلا شك، تحت الملابس في الدرج العلوي من دولاب أو بوريه أو تحت مرتبة السرير، والخيرة فيما اختاره الله يا ضناي، نعمات والله بتشكر فيك خالص يا سي شوقي، وتعزك زي أخوها، قالت لي عنك كتير ودايماً بتجيب سيرتك بالخير يا بني، ربنا يرضى عليكم يا خويا ويسهلها لكم ويبعد عنكم ولاد الحرام، والدكتور ربنا يخليه راجل طيب وابن حلال، والثرثرة العجوز تسترسل وتطيّب القلب، وهو يستريح إليها، راضياً، ولكنه لا يخطيء فيها مع ذلك نغمة لعلها مقصودة، لهجة الأم التي ترحب بعريس محتمل، وتستكشف الطريق، وتمهد الجو لعَدَل البنت التي في سن الزواج، في ثقة وتمكن ومن غير اصطناع ودون اقتحام.

ونعمات تأتي له بالشاي على الصينية الزجاجية، ويسطع له مرة أخرى وجودها في مظهرها الجديد الحميم، في غير ملابس العمل وأناقتها المصنوعة، بأناقة جديدة مستريحة، وذراعاها العاريتان تبدوان منعشتين، نسمة من هواء البحر الطري في الحر، وقد تكسر البطن، واسترخى النهدان بجانبي البلوزة الواسعة، والبنطلون البيتي الصيفي من قماش خفيف كاروهات أبيض وأسود ـ صغيرة، هندسية ـ يستدير في نعومة بالبطن والردفين، في التصاق حميم، ويتحملها في رفق، يقيها من الانهيار في الضوء، وينتهي تحت الركبتين بقليل فيترك الساقين الفارعتين المسحوبتين رخامهما أبيض بارد. وهي ترفع ساقيها لكي تجلس على الفوتيى أمامه، إلى جنب، فترتفع القدمان العاريتان من على الأرض، وتدفعهما إلى تحت جسمها، فتلتصق بطن القدم الرقيقة بسمانة الساق المكشوفة المستديرة. وتستريح في جلستها، وترفع فنجان الشاي لكي ترشف وتستطعم، في تخفف من كل عبء، حسية الراحة على الفوتيى ومذاق السائل الأحمر الشفاف المنعش بسخونته، يعدل المزاج، ويرطب الجسم. والأحمر على شفتيها، من لون الشريط العريض المعقود على الشعر، والخط الأسود الحالك السواد الذي يحيط بالعينين، ويحددهما، ويكسبهما سعة ذئبية نائمة الضراوة، في صفرتهما الباهتة وهج الشاي المشع، وهي تبتسم في ارتياح، ولكن فيها شيئاً مهدداً كامناً، كأنما فرغت من أمر الفريسة، وهي تتمطى في أدغال الأثاث الرث القديم.

دخلت عليه فجأة وهو في المعمل، بعد انصراف الدكتور، وحاول أن يفرش «الأهرام» على طبق الفنجان، لكنها كانت أسرع من حركته، ورأت نثار دخان السيجارة المفتت في الطبق، والقطعة الصغيرة المغبرة اللون بجانبه. ولم تتكلم. كان المعمل معتماً في آخر العصر، ولم يكن قد أضاء النور وفي عزمه أن ينتهي من السيجارة قبل أن ينصرف إلى ليله الطويل المثقل بالعمل. كان وجهها رخامياً في العتمة، أكثر شحوباً مما رآه في أي وقت. وقالت له بصوت مضطرب أنها نازلة، فلم يسرع إلى النزول معها كعادته. وأكمل ما هو بسبيله، وقضى ليلته يكتب مذكرات مستعجلة لأحد دكاترة الكلية. هل ثقل عليك العيار؟

أبداً والله العظيم. لم أكن أحلم. وهذا ليس كله بشيء، هو يشرب لكي يساعده ذلك على السهر، والعمل. هذا كل شيء. كانت عيناها تتقدان بهذا الوهج الأصفر المحرق، نار مركزة، وصوتها مرتفع ثاقب لا يعي إلا نفسه، في مناقشات ومشاحنات لا تنتهي إلا لتبدأ من جديد، مناقشات في العمل، هذه المرة. هؤلاء النسوان لا يفرغ لهن ضجيج، ورقة التحليل، الست التخينة جاءت اليوم وفتحت عقيرتها، لماذا لم ينته شغلها؟ وحسن الممرض حرامي، لماذا تتركه يسلم الشهادات للمرضى بنفسه. ليس هذا عمله، ووقاحته معك. ليس هذا من شأني ولكن لماذا تسكت على لسانه السليط؟ أنت المسؤول، لا شأن له بالشهادات. أنت المسؤول، أليس كذلك؟ وهل تعرف ماذا يقول عنك، من ورائك؟ ولكن هذا يحز في نفسي، وأنا مالي..

والشفتان الرقيقتان ترتجفان، شفرتان حادتان لشيء قاطع، وهو يحاول أن يناقشها، أن يرد عليها، بحجج هادئة، وقد جف قلبه، ونفسه تفور. هل العمل حقاً هو مبعث هذه الهجمات التي تكاد تفقد فيها كل تحكم في نفسها؟ أم السبب امرأته، وحكايتها، أم اكتشافها في المعمل، في آخر العصر، أم هو حبوط ما في دخيلتها يتفجر بالقشرة الساكنة البيضاء، ويشققها، عن هذا النفث من لهب وحميم آن؟ وهو ينهض، ويدور حول جثة الآلة الكاتبة السوداء، والأوراق المتناثرة. ونور الشمس ينصب من النافذة الشرقية بزجاجها السميك العتيق، ويسقط على كتفها. ثم يأخذ بذراعها يدعوها أن تجلس. ندت عنه لحظة، ثم استرخت في المقعد، كأنها قد استنفدت معين غضبتها، والكتف المدورة الناعمة تحت القماش الأبيض الخفيف مشرقة في أشعة الشمس، حلوة الإستدارة، وينحسر طرف «الجيب» من أعلى الساق، وركبتها البضة فوق ساقها الأخرى، واعدة، متحدرة من ربوة الفخذ تحت النسيج الصيفي. بم يرد عليها؟ وما جدوى الكلام؟ أي شيء يحقق له ما يتوق إليه من اندماج كامل، ووفاء كلي بالوعود التي ينبض بها الجسد؟ ما من شيء فيه وفاء بالوعد. ما من سبيل إلى الوفاء بالوعد. وعليه أن يروض نفسه، ويسومها الصد، وينأى. عليه أن يجاهد هذا الحريق اللاعج الذي يطوح به، يدفعه للارتماء على أبواب هذا الهيكل الباذخ الناعم الرخام. وينحني، وهو يرد عليها. وشفتها السفلية الداكنة الحمرة ما زالت ترتجف، أهون رجفة، مكتنزة

بخصب لن يعـرف طعمـه أبـداً. حتى لـو عصفت الأنفـاس الحارة، ودفعت ظمأه إلى الثمرة الغنية بالرحيق، فهناك في داخله منـطقة جـدب كاملة لا ارتـواء فيها. ذراعـاه فيهما تـوتر كهـربي مشـدود، لو أنـه ضم إلى صدره هـذا الهيكل المنيف. هنـاك فيه منعة لا تطال. وبصره يقـع فجأة عـلى ثنية تحت زرين من أزرار قميصها الصيفي، ثنية من البطن العاري تحت القـماش انكشف للضوء في انحناءتها للأمام، وهي تضع ساقاً على ساق، عجـين طري متماسك القوام تحت كنزين صغيرين يحملان وعوداً أخـرى مخبوءة في ضمة النسيج. ألم يعرف هو، عبر محنته الطويلة، ختل الوعود؟ زمّ نفسه، في عناد لا يطاق، عن أن يحيطهـا بذراعيـه، فهو يعرف، يعرف أنه لن يجد شيئاً. ومهما كانت النار موقـدة في المحراب، فإن قدس الأقداس خاو على عروشه. وهو يعرف أنـه سيبقى دائمـاً، دائماً، خـارج الأبواب، يشرب، ويعمـل طول النهـار، ويعمى من الشرب والشغـل، هــذا كـل شيء. رنــين الجـرس المفاجيء العنيـد، فتقوم تـرد عـلى التليفـون. نـداءات معدنية مصمتة لا بد من الرد عليها، التليفـون والباب والسـاعة والترام، تحرّشٌ لا ينقطع ووخز الإبر المشرعة في اللحم الحي.

صدى صلصلة الجرس تحت سماء مفتوحة باهتة صافيـة مخففة الزرقة بالماء، كِسَف السـحاب البيضاء في الشرق تخفي استـدارة الشمس، وينسكب منها ضوء رقراق طلق صحو، والترام يصعد فجأة، في رحلته الطويلة، على كتف من الأرض الرملية، يتسنم متن الطريق، بين سورين من أسلاك مشدودة على أوتاد حديدية

عالية. وتنكشف زرقة السماء من بين الأسلاك، وهما في الترام، فوق، على القضبان، فوق قمة العالم، تحت السحاب الأبيض، النوافذ مفتوحة يهب منها النور المبلول القادم من البحر، وهناك فجأة، تحت، تنفسح أمام عينيه، الصحراء. ومدينة الملح في وسط العراء. امتدادات من مياه الملاحات الساكنة تتلألأ عليها طبقة بلورية من الملح اللامع. وتقوم في وسطها أبراج عالية مخروطية، عليها صلبان فضية تلمع وتعكس وهج النور الصباحي، وقباب مستديرة مغبرة البياض، ومآذن سامقة نحيلة، وتبدو له سطوح البيوت، والمنائر، متلاصقة مربعة، ومستطيلة، مبنية بالطوب والحجر. وقد ساخت البلدة كلها في وسط مستنقعات الملح، وليس في المدينة من حركة، وسط المياه الساجية المكسوة بالملح، سهول فسيحة حواليها، والماء الملح يترقرق على طين رملي رخراخ، أمواجه ضحلة صافية على قاع الرمل، يلعب تحتها الضوء، في قلب الصحراء الشاسعة المسطحة حتى الأفق، ويهبط الترام فجأة، تغور به الأرض، وترتفع حواليه السدود الرملية القديمة المغسولة بمياه الأمطار من الشتاء، فيها تجويفات رملية صلبة، والترام يشق النور الخفيف الساكت، في رؤيا من حميا رائعة، وأوراق التين الشوكي الصلبة المشعثة ونباتات الصبار الجافة الداكنة، منتصبة شائكة، تضرب فيها عصارة كثيفة نزرة الماء.

وهما وحدهما، في الترام الخاوي، يقف على المحطات الخشبية، والأرصفة خالية، ويقوم. والسائق مندفع، بين

فجوات الصمت وضجيج القرقعة، ويده تتلمس يدها، وتعثر عليها، فوق استدارة الجسم وبين حناياه الطرية، وتتداخل الأصابع في تماسك حميم وثيق، في بحث ملهوف. عظامها الرقيقة تصطدم بأصابعه، تحت جلدها الدمث، الغض، وتدفن نفسها بين ثنيات يده، متلمسة أيضاً، تنقب عن شيء ما، عن تواصل ما، عن اندماج محموم، متعجلة، تجوس، وترتاد، وتتفحص، في إلحاح، ولجج، ولهفة. والدماء تضرب في رجولته. الأبراج والقباب تنبض تحت الشمس، في مدينة ساحلية مهجورة في الصحراء، تحت طبقات الملح. والخطوط الحديدية تتشابك وتتداخل وتنفرج، والمحطات تتوالى، ثم تتراجع بين الرمال.

والترام يقف، ها هي ذي المحطة، وينتزع يده، ونفسه، منها، فجأة. ويقف، لا يقول شيئاً، وإنما يجب أن يجري، وينزل يلحق محطته، قبل أن يقوم الترام، ويندفع، في غشاوة محمومة منيرة. وما تكاد قدمه تمس أرض الرصيف، وما يكاد ناظر المحطة، الذي يقف وحده، ينفخ في صفارته، وما أن يستدير ليلوح لها بإشارة التحية والوداع، وينفث الترام أولى آهاته، متأهباً للحركة، ويصلصل الجرس، حتى يدفعه فجأة شخص ما، من ورائه، دون أن يراه، إلى داخل الترام، بينما الترام يتحرك. وهو يقبض مرغماً، متشبثاً، على حاجز السلم بخشبة اللامع القديم، في هذه الحمى الساطعة، في صمت المحطة الصحراوية الخاوية، وهو على سلم الترام، وقد بدأت

القضبان الحديدية تتراجع تحته، وجسد القاطرة يتزلزل في أول حركة. وإذا بحاجز السلم الخشبي ينخلع مرة واحدة في يده، ويرتفع في الهواء. وهو يتطوح، والترام قد تجمعت طاقته واندفع إلى الأمام. وهو قد تزايل، لا يستند الآن على شيء، وقدماه تتزعزعان من على السلم، والرصيف قد تراجع، ويده قد ارتفعت قبضتها بالحاجز المخلوع، وهو يتطرح، ويتهاوى، على وشك التردي إلى الوراء، في سرعة انطلاق الترام. ولكن الكمساري يمد يده فجأة، ويجذبه، ينتره إلى الداخل، مرة واحدة، وهو يثب، لا يحس شيئاً، وإذا هو في الداخل، في أمان مؤقت لحق لهفته، وآواه وراء زجاج الواجهة، على رقعة من أرض الترام المعدنية المنطلقة في طريقها.

يا أخي مش تحاسب، حصل خير على كل حال، الحمد لله، جت سليمة. كأنه هو المذنب، كأن هذا الحاجز الخشبي المخلوع لم يكن هناك، ولا ذاك الذي دفع به إلى سلم الترام، من ظهره. كأنما كان سيقع، وتقع الحادثة، بخطئه وذنبه. وكانت قد ظلت جالسة، بلا حراك، تشخص إليه ببصرها، ثابتة النظرة، في عينيها ماء متموج مغرورق، لا ينسكب، صامت، على قاع أصفر ذهبي باهت، به نقاط رقيقة سوداء.

والكمساري يتجه إليهما، في قصد، يطلب شيئاً، مهدداً، لا يتكلم، لكنه لن يتراجع. ومن ورائه، من الدور العلوي للترام، نزل الأعراب، متجهين إليهما، يطلبون شيئاً، لن يتراجعوا. لمة من البدو، هم من سكان العامرية، بلا شك، أو

هذه البلدة الصحراوية، من النازلين في المصحة. على أكتافهم ورؤوسهم بطانيات صفراء ناصلة، بها مربعات زرقاء باهتة، يخفون بها جوانب وجوههم، لا تبدو إلا عيونهم السوداء الضيقة، جامدة، عميقة لا يسبر لها غور، تحت أهدابها الشقراء، على الجلد الأسود المدبوغ، وثنيات الغضون في وجوههم تبدو خطوطاً رقيقة معرجة بيضاء في الجلود القشفة التي صوَّحتها شمس لا ترحم، وصَهَدها حَرّ قاس لا يني يعود يوماً بعد يوم. وحول الفم تقرحات بيضاء، كأوراق معرّقة باهتة، ممزقة من وسطها مزقاً مشعثة، يغطونها، بأطراف البطانيات، بأيديهم المعروقة السوداء التي تشعّب البياض وتشرَّج في سوادها، بأزهار وحشية الشكل، شائكة كالصبار. وهم يجتمعون حواليه، وراء الكمساري، صامتين، عيونهم ترى، ولا ترى، محترقة، مصوبة نحوه، مشدودة إليه، تسطع في غورها، لا تطرف. ماذا ترى فيه؟ كل منها شمس صغيرة متقدة، يتألبون عليه، بأعوادهم الضيقة الخاسفة، ضاوية أجسامهم تحت البطانيات، وقد حفوا به، كأنما يتوقعون منه الخيانة، وينتظرونه، وقد اعتورته، برغمه، سحابة همومهم، وغشيته غاشيتهم. بؤرتهم هو، هدفهم، ونواة احتشادهم. ويمد إليه الكمساري إصبعه، في تحذير، هؤلاء قومك، هؤلاء ناسك، اطلب أيآمنهم تجده. تحت أمرك. أنت منهم، وهم لك. أنت، نعم، أنت.

وقد ارتمض من ذعر مفاجىء، نفضه من شلله، فهب يفلت من خطر محيق.

ويندفع، دون أن يدري، يجري، يثب، ويسقط من الترام المنطلق بها، بالكمساري وبالسائق، وبهم، بهم جميعاً. هنا محطته، لا طريق له بعد الآن. وتتطوح الأرض تحته، ترتفع إليه، صلبة، ثم تنخفض به. وهو يجري. تتلاحق ساقاه إلى الأمام، يكاد ينكفيء على وجهه، ويستقيم، لا صوت يند عنه، يلوّح بيديه. والترام قد انطلق بعيداً عنه، أصم، مغلقاً على ما فيه.

ويقف، يشد قامته، وقدماه تثبتان على الأرض الرملية، يصدر عنها حفيف جاف في السكون الذي يعود فيرين على كل شيء. وليس في قلبه حس ما، إلا بأنه وحده، وقد وصل إلى آخر السكة. وحده، في رمل الصحراء، ينسكب عليه ضوء رقراق من وراء السحاب الأبيض الخفيف. والهواء جاف، طاهر، والصمت مطبق، تام، في فراغ الصحراء، أمام الخطوط الحديدية الممتدة، حتى النهاية.

الأميرة والحصان

انكسر العمـود، وندت عنـه دقة واحدة، نهائيـة. وانـطبقت الظلمة، والدهشة. تهاوت عظامه على الأرض، طرية، كـالماء، تجتذبها الرمال المترية القـذرة المتماسكـة. وعنـدما فتح عينيـه كان السقف عالياً جداً، بعيداً، بقماشه المسـودّ الصفيق، متهدلاً بـين عروق الخشب المائلة، ساقطاً على العمود المـربع المفتـول. لم تكن هنـاك نسمة هـواء. وفـوق الصخب والضجـة والنـور، كـان في السقف ثقب صغـير أسود تـبرق فيه، من بعيـد، نجمـة وحيـدة صلبة، عين قـاسية. والعـرق ينثال من بـين أبطيـه، خيطاً سخنـاً جديداً، والأرض خشنـة تحته بحبـوب الرمـال والتراب الـدقيقة الحادة. والفحيح ما يزال كـالمعتاد، عن الكلوب الضخم المـدلى، شرساً، على رأسه. سحابـة مسدودة من النـاس تتجمع حـواليه بسرعـة ولا تنهمر، ولهم طنـين، يحدقـون بـه من كـل جـانب، كالناموس الكثيف تحت شمس ظهر حار. ومن ورائهم موجـات متراكبة من الضجيـج واللغط، لا بلل فيها لشفتيـه، تنكسر على هذا السور من الأجسام المنحنية عليه. لم تكد تمر لحظة واحـدة. هادئة تماماً، خـاوية، لم يشـاركه فيهـا أحد، ولا شيء. تقـوض

فيها هيكل كل شيء. صدمة الألم لحقته فجأة، زلزلته مرة واحدة، وغمرته، وأغرقته، ثم انحسرت عنه. وتركته مغسولاً، أبيض. ضربات الطبول توقفت ثم عادت، وموسيقى النحاس تصطفق. كانت عيناه صاحيتين، وهو على الأرض، لا يحس الآن ألماً ولا دهشة. وجلبة الناس حواليه، يشورون ويتصايحون، ضوضاء لا صلة لها به. وحواليه فراغ كامل، فجوة له وحده وسط زحام متكاثف مكتوم، وهو ينظر إليهم بعينين لا غيام فيهما. دخّلوه من هنا. حاسب. تليفون للإسعاف. فيه دكتور هنا؟ الإسعاف جاي. اعملوا معروف والنبي. لا سليمة الحمد لله. مات يا عيني الجدع. يا حرقة قلب أمك يا خويا. بصوت ناعم هادىء مدفون. سليمة. ما ردش منطق. سليمة. إن شاء الله سليمة. دخّلوه هنا، الإسطبل من هناك. حاسب. اعملوا تليفون للنجدة. والطبول تخبط، لا تدق له. طنين الذباب الأزرق الكبير في شمس الضحى العالي، وتحت وجهه حس فتائل الخيش الخشنة، والتبن، والتراب، برائحته الجافة المصوحة الحريفة في الشوال تحت صفحة خده وفي أنفه وفمه. وهو يتقلب، ويفتح عينيه في عتمة صباحية يحيط بها قماش خيمة الإسطبل الكابية القديمة. وسلطان يزفر في معلاق التبن تحت خطمه، وينفخ فيه الهشيم الأصفر الدقيق المتطاير مع الغبار والذباب في حزمة الشمس الساقطة بين فجوات القماش. يدق الأرض في توفز، بحوافره القوية، وساقيه الأماميتين المخروطتين الرشيقتين. ومن ورائه الخيل الأخرى مربوطة في أوتادها

المرتفعة، في آخر الخيمة. الساعة كم، عشرة.. إحدى عشر.. غسيل الخيل الآن، وتمشيتها في الحوش. دبدبة الأرجل حوالي الإسطبل، وشتائم السياس واللاعبين والمروضين والعيال، من الخارج، مكتومة، نبحات الكلاب الدقيقة الثاقبة وزئير السبع العجوز، أجوف قصيراً خاوياً، مع صلصلة باب القفص. وهب يجلس على فرشته وظهره يطقطق من وجع النومة على الأرض الجافية. يلعن ديك دي بلد، لم يطلعوا منها حتى بثمن العلف. ما زال على مولد سيدي البدوي شهور. ربك رزاق كريم. مولد أمبابة، ومار جرجس، والمنصورة، وسيدي الدسوقي، وموالد القرى، هدة حيل من السفر والقيام والحط بالسكة الحديد واللوريات وآخرتها نفس النومة على الأرض في كل مكان. أم لعله العجوز ابن الكلب يريد أن يأكل حقنا. حار ونار في جتته. بس يشغلنا سايس وبلياتشو وبياع تذاكر وصبي عالمة، مغسل وضامن جنة كمان. والله لو ما الست أميرة. نهايته الأرزاق على الرزاق. يا فتاح يا عليم على وش الصبح. وتوقفت عيناه فجأة على العصافير، وجمد. كانت العصافير تثب وتزقزق في خفوت، بين سيقان سلطان الرقيقة السامقة وأجنحة الذباب الأزرق الكبير التي تعكس شعاعاً بنفسجياً زاهياً، وتنقر بعظام أفواهها الدقيقة أكوام الروث السوداء عليها الكرات الجديدة الصفراء الساخنة التي يتصاعد منها بخار خفيف، وتنط على التراب والتبن، صغيرة متوترة بريشها الرمادي الداكن في غبش الخيمة في الصباح، تفترق

وتلتقي على العلف والتبن وبين جرادل الماء وفرش الغسيل، وتسقسق بصوتها النحيل بين المجاري المتعرجة التي خطتها على الأرض مياه بول الخيل. والرائحة النفاذة تتوقد وتشعره بإلفة وأمان، بأنه في بيته، بين هذه الأجسام العضِلة الحية التي يستمد منها جوهر حياته، لا يستغني عنها، والبطون المستديرة الضخمة تنبض أمام عينيه، نبضاتها السريعة. وصهل سلطان فجأة، ورفع خطمه المبلل الذي علقت به نثارة التبن وتطاير منه رشاش سريع، وجاوبته بربرة متلاحقة من صهيل بقية الخيل، فتواثبت العصافير في لمحة، سحابة صغيرة من الريش الذي يزف والشقشقة الثاقبة المذعورة، إلى فجوة ضيقة في قماش الخيمة الممزق رشقت أنفسها فيها في انطلاقة مسددة لا تخيب. وضحك، ووقف يحك أنفه من التراب، وفي فمه جفاف القيام من النوم في الضحى العالي، يستشرف سخونة طعم الشاي وسلساله الطيب على اللسان وفي قصبة الصدر، ومد يده يطامن توتراً سخناً جافاً من وخم النوم الدافىء ومن رائحة أجساد الخيل. طالما نشقها من استدارات طرية أخرى، من حنايا اللحم اللدن تحت مايوه الشغل الساتان الأبيض، في ضوء الكلوبات الحارالمشبع بالتراب، وسط الموسيقى النحاسية الجعجاع، وهدير الناس على مقاعدهم الخشبية، وهو يتدحرج ويلعب نمرته في الليل، والساقان الخمريتان الصلبتان على ظهر سلطان قائمتان، من رخام لامع ندي مسنون، يحملان جلال الدنيا وطراوتها ومجدها، وقرقعة السوط المرفوعة به ذراعها

الملفوفة الناعمة، نضيرة بلمعة العرق ومتوترة، عالية في الهواء، ودورات سلطان الضخمة الرشيقة المتسارعة باطراد، حول الحلقة، وهو تحته وجنبه يتقلب ويجري ويدور ويثب، ويلطم وجهه من الخوف والإعجاب فتترامى إليه الضحكات الخشنة التي ينفرج بها توتر الناس أمام خطر الدورات الجريئة المحسوبة، وأمام الفتنة المتحدية التي تقطع الأنفاس من المايوه اللامع المحبوك، والرائحة تغزو جسمه الآن، ويتوتر لها، أميرة، أم سلطان؟ حريفة، لاذعة، بها عطن حلو من نفح العرق الأنثوي. وذكورة الخيل معاً. ويفجأه الصوت الخشن العذب، صوت بنت البلد الذي يصدر عن حرية كاملة، دون أدنى كفٍّ لما يجيش فيه من غلواء شبابه: هو ابن الكلب ده لسه ما قامش. أنت لسه نايم يا واد أنت؟ مالك واقف مبلم كده ياد؟ هِمّ شف شغلك بقى يا بن ال.. بنبرته الممطوطة، وسيطرته، ودلاله، ومعرفته بأنه لن يُرَد، وثقته التي لا يعتورها شك بأنوثته اللينة. وهي تنحني لترفع قماش الباب ثم تتركه ينسدل ويحف التراب. ويحيطهما، مع الخيل، حضورها الحميم الحار في الخيمة المقفلة، وتولد الحياة في الجسم الفتي، تحت الجلابية الرجالي الواسعة المشمرة الكمين التي تحب أن تلبسها في الصبح. الله ـ ما بلاش شتيمة على الصبح يا ست أميرة، يا فتاح يا عليم. باحتجاج مَنْ يعرف انه ليس هناك ما يحتج عليه. ما احنا قايمين أهوه. ما تصلي على النبي أمال يا ست الكل. نهارك حليب إن شاء الله، يا صباح الفل. طقوس معابثة الصبح التي تفتح أيامه

وتحلّيها. فل إيه يا واد إتنيل على عينك. ما تبطل لماضة يا واد، نهارك أبيض يا خويا، هِمّ يا واد بقى بلاش لكاعة. بسخرية حميمة أليفة فيها رضى، ولا مبالاة، وقد وضعت يدها تضغط على عنق سلطان التلعاء العضلة، فراح يحمحم، بخطمه المبلول، في يدها الأخرى المدودة بقطعة السكر تحت شفرتي فمه الغليظتين المرتجفتين، وعيناه متسايلتان من الحب. وهي تلقي إليه بنظرة بينما ينحني يلملم الفرش وينفض معلاق التبن ويصطدم بالكيزان ويرفع الجرادل، بساقيه الهزيلتين السوداوين الناصلتين تحت لباسه الأصفر الواسع المتهدل إلى ما فوق ركبتيه والبلوفر القطن الحائل الاخضرار على فانلة نصف كمّ اهترأت رقبتها، من تحت البلوفر المغضن، حول قفص الصدر الناحل المدور، ويهرش شعره المجعد ينفض عنه نثار التبن ويحك منه تراب النوم، وسقطت يداه إلى جانبيه، ذراعاه ضاويتان متسختان لا قوام لهما. وسلطان بجلاله الرشيق يدور، يدور بسرعة، ينزو صاعداً وفوقه النصب القائم الجميل، لامعاً، متوتراً في توازن ثابت ولكن حرج رقيق، مشحون بحياة متفجرة مكبوحة معاً، والترتر في حواف المايوه الأبيض يتألق تحت ضوء الكلوب، وينطفىء، ويتوهج بألف لون، يعلو ثم ينخفض، وهو ينظر برأسه المسبوكة المنحوته إلى مواقع حوافره التي تعرف إيقاع دقاتها على الأرض، ويفلت منه وهو يجري حواليه، يدور ويتقلب على الرمل المفروش الترابي، وينكفىء على وجهه بحركاته التي حذقها حتى كاد ينساها، وما زال سلطان ينفلت

منه، يسبقه، وفوقه أميرة، يقتحمان المدرج الخشبي، يلف مرة أخرى، في الهواء، جسمه الأشهب الممشوق يخترق الناس المتحلقين الساكتين، يدور بهم، وفيهم، يمر من خلال الألواح الخشبية الرثة المتمايلة، ينفذ عَبْر الأفندية بالجاكيتات الضيقة الكتفين على الجلاليب الإفرنجي، والمعلمين بكروشهم الراسية وقفاطينهم الجوخ الغالية وشيلانهم الزاهية الحريرية، ويثب على دكك الترسو المكظوظة بالجلاليب والطواقي والعمم والمللايات اللف. على ثبج ظهره العاري المسبوك الأملس عمودان من مرمر مخروط ينهضان بالجسم السامق الذي تهتز فيه أمجاد العالم، في الساتان المحبوك، في سورة ساطعة. بلا صوت. السوط في يدها تلتوي انثناءاته السريعة لساناً حاداً نهماً ملتهماً، دون قرقعة، لماذا سكتت الطبول؟ الآلاتية في التخت يدقون ويخبطون، وأقراص النحاس ترتطم وترتعد بين اليدين المحمومتين، في ذبذبتها الكهربية الخاطفة، ولا صوت. الأفواه محيطة بالأبواق تمسكها مسكة خبيثة لا تريم، الرقاب منتفخة الأوداج من عزم النفخ، ولا صوت. سلطان يدور، في تصميم لا يبالي شيئاً إلا دورانه، وأميرة ترتفع حتى تكاد تمس قماش السقف الأسود الداكن، فوق الكلوبات التي تثز بنور شرس، ثم تهبط في وسط الناس بين عواميد الأخشاب المتشابكة، من خلال الدكك الطويلة الدائرية المتأرجحة، يحملها اندفاع الحصان الذي يشق أمواج الصمت والوجوه الصلدة الصخرية، وزحمة الأجسام المتلاصقة لا يند عنها حس، ولا صوت. نواة صلبة من عناد مغلق متحجر، في

غور الأحشاء الـطرية المبللة المـرتجفة بـالدم، لا تنـد عنه آهـه. غاشية متملكة تطوف بقضبان الضلوع الخاويـة دورة بعد دورة، حول البذرة الجافة، تسمو وتسوخ بها الأرض. في البؤرة جيشان مكبـوت يهم بـأن يلفظ نفسـه، ويمجهـا، ويصـــده إصرار مـا، ويحـدق به تمـاسـك العـظام الحـرج، في وسط الحلقـة الـدوارة، عمـودهـا قـــد انكسر، ولا يسمـع لـــه صـوت. حفيف النفس يلهث، ولكنه يعمل بانتظام. مركز ثاقب من النور يجرح، يجرح العينـين، إبرة مـرهفة السن مغـروزة بثبـات في حـدقتي العينـين المفتوحتين، لا تطرفان. كحل يحيط بالعينـين الحلوتين. مـا أندر العيـون الحلوة، وطفاء، أهـدابها تفـرش عـلى الخـدين الأسيلين القمحيين، فيهما خجل ومعرفة نضرة بعد وعميقة معاً، عـروس جـديـدة بفستـانها البمبي بـرقبـة مكشكشـة، تحت الـطرحـة السوداء، وعقد كبير أصفر الحبات، وعَصبة الرأس بالمنديل تبدو تحتها قصة الشعـر السوداء النـاعمة، وإلى جـانبها زوجهـا الفتي بوجهه الناحل الخشن المجدور الجاف، وعينيه القلقتين، عموديّ في جلسته المحرجة، جلابية يبوشها لم تغسل بعد، رقيقة النسـج يتطاير بها الهواء عـلى أوتاد مـتراكبة من خشب عـظامه، وطـاقيته بفتة بيضاء، مزهَّرة، يجلس في توفز يشي بارتباك مـدوِّم، والبنت بجـانبه دسمـة طيعـة، تـدور بعينيهـا الحلوتـين المكحـولتـين في النـاس، تنظر إليهم لأول مـرة كأنمـا انجـابت عنهم ـ لا عنهـا ـ غشـاوة عـذريـة كـانت تحجبهم، فهم يسبحـــون الآن في ضـوء كـاشف متغلغل، وهي تـراهم الآن بعـين فيهـا خـبرة جـديـدة.

وهو يتدحرج مع العينين بين سيقان الحصان الوثيقة المدملجة التي تطفر بلا صوت وتشوخ به في الهواء على كتفي البنت الصغيرة السمراء، بوجهها الجائع، وصدرها الأمسح الضيق، في فستان العيد المجعد المغضن الثنيات، ترفع ذراعها الممصوصة الطينية، بنصف كمّ، تنزلق عليها غويشة زجاجية لامعة، وتتعلق برقبة أب عجوز مخدد الوجه، تاتىء مشدود الجلد على عينين محترقتين، تحت طاقيته الصوف الكابية. البطن الأشهب المستدير ينبض في دورته، يغوص في مياه الوجوه، يشق السطح ويهبط بلا نفَس، وفي اهتزازات المياه الشفافة. شبه مفتوحة متدلية تستطعم، في وهم حسيّ، مذاق عجين الجسد المشدود وقبابه الخمرانة، وكوفيات ملتصقة برقاب مختنقة. الحوافر الصلبة الدقيقة تدق في الهواء، وترسم إيقاعاتها الهندسية المحكمة، في عطن الملاءات اللف القديم المسدود على نفسه، يلمّ عطب نصف العمر، في وخامة دفء تفه الطعم لا حرافة فيه ولا حلاوة، لم تعد منه جدوى. العينان المدورتان اللامعتان الذكيتان مصوبتان إلى الولد الذي يضحك، دون صوت، فترد عليه البنت الشقية الممراح بابتسامة صافية، بدلال، وتدفعه في صدره، وهي تفتح فمها وتغلقه، تومض أسنانها، تشتمه وتضحك، بصمت تمتمة شفاه في قراءة صلاة، على حصير ناعم محاط بأعمدة حجرية بيضاء وشبابيك زجاجية بأشعة شمس أرابيسك. الرقبة الشماء شامخة تنتهي بعضلات وطيدة عند أركان الصدر العريض المتين الأساس، تمزق كثافة الناس باعتدادٍ فيه كل التمكن والجلال.

وهـو يتقلب معه، يقـوم بشغله، شأنـه كل ليلة، عينـاه معلقتان بنجمته الشاهقة ذات الأشعة القوية الـراسية القـواعد عـلى متن موج أشهب وثيق العضل، تطير في الهواء، وتنقلب ـ هذه لعبتها المخيفـة الرائعـة ـ على ظهـر الحصـان، وتعتـدل عـلى الفـور من جـديد، مشـدودة ثابتـة، وتخطف أنفـاس الناس، ويـدوي رعد التصفيق والضجيـج، وتـعود تـدور، وتنقلب من جـديـد، وإذا البنيان يميل، أهـون ميل، ويتضعضـع ـ لحظة واحـدة أو أقل ـ وقلبـه يرتكض في جـوفه، من اللهفـة والفزع، ويتـطاير هـوجـاً، وهو يندفع في لهوجـة مجنونـة وتصميم لا يعي شيئاً إلا انـه يبذل نفسه فدى، يقيم من جسمه السفساف الضامر صخراً أمام المـوج المتحدر المتهاوي. هل استقام البنيان المتقلقل، واعتدلت على عودها سارية الشراع، أم انصهرت الدعـائم وتسايلت في زلـزلة عـارمة جرفت أمامهـا نُقاضـة السد الضئيـل؟ لم تنتفض به إلا انـطلاقة رمت به تحت أقدام كل المجد الذي في حياته، الذي في الحيـاة، يقيمه ـ بكل ما لديه ـ من خطر النقوض والتردي. وكل ما لـديه لا تبدو له أبعاد ولا أوزان ولا ضِخَم. لا يعرف ولا يخـطر له أن يعرف إن كان شيئاً كهبوة غبار تسف به نسمة هواء أم ضلعاً من جبل يملأ حيز الوجـود كله، جَلداً راسخ المتـون. الناس في مـاء جمودهم الصفيق المصقول، يهـدهدهم الخـطر وتهوم بهم سحـابة استغراقٍ كامل مبهوت، ومـا من شاهـد على هـذا التفلت الذي طـوح به، هـذا النـزوع لـلاستشهـاد، دون شهـادة. تـدحـرج البليـاتشـو على الأرض مرة أخـرى، دحرجـة رثة، لم ينتبـه إليها

أحـد. ولـــم يتحـرك. ومضى سلطان في دورتـه، وعـــلى ظهـره العاري صرح ثابت ناعم عال من جسدها المنتصر الـذي يومض حَجَره الأبيض. ساق رقيقـة ممشوقـة مشدودة العضـل، متفجرة متنزية بحياة لا ردة لها، ضربته ضربة واحـدة، أم وقعت الخيمة كلهـا، وانقض العمـود، وسقـطت السـماء؟ وجنـدلت الأشـلاء ملمومة في إطارها الذي انقصم، وهيض، كأنها سليمة لم تمس، طـريـة كمجـرى من المـاء النـزر عـلى رمـل قليـل، سريـــع إلى النضوب، وشمس صغيرة قاسية تحـدجه، في الصمت، من غـير دهشـة. ينفجر كـل شيء بالصـوت فجـأة، فـرقعـات البمب في الخارج، وقصف الطبل الضخم، رتيباً أجوف، يرن كل صدى له في احتشـاد مليء، وقـرقعة الصنـاج النحاسي وهـزيمة المـرتعش، وانـطلاق البوق في تمـوج كثيف يسد المسـامع وأزيـز الكلوبـات سرب هـوامّ متقد مستمـر لا ينتهي له احـتراق. وسّع يـا جـدع تلاتة بريمو عندك. فتّح عينيك تاكل ملبن. وهديـر الأصوات في لجة مترابـطة الأطراف ثقيلة القـوام، وضحكات أنثـوية متخلعـة وتحـديات متحـرشة وإثبـات للجـدعنة بصـوت جهـير، وجلجلة السبـع العجـوز، وجمجمـة الخيـل، والكـلاب تـوقـوق خـائفـة بصيحات صغيرة، وأنفاس التراب تحركه الأقـدام وزحمة البهجـة بالمولد تطن وتدور في سحابة من دخان مشاعل النيران ومصابيـح الغاز على عربات الترمس وكهرمان الحمص المدور الصغير وحب العزيز اللحميّ الأشعر وأزيز مـزامير الغـوازي وزمزمة المواويـل الـطويلة وغرغـرة النـراجيـل ونشيش عـدة الـوشم عـلى الأذرع

والصـدور والصوت المبحـوح يجأر في قلب الغـمار فتح يـا جـدع الرجا الابتعاد من السبوعة اللي معاه عيّل يمـسكه في أيده المروّضة المصرية العالمية تدخـل على الأسـد البنت المصرية تشكم الأسـد ياجدع وتلعبه فتح عينيك وصلّي على النبي مَلحة في عين اللي مـا يصلي على النبي الـست داخلة على الأسد يا جدع. وتعليق بذيء وضحكة مقرقرة طويلة متحشئة، ودقات الطبول قـد جنت وفقد النحاس كل إيقاع وعـاد رعداً مقعقعاً متعـاقب الخبطات متـوالياً محموماً ينتهي إلى سكتة غائرة عميقة جوفاء، ثم فرقعة السـوط، وصفقـة باب القفص يصلصـل بالقـوائم الحديـدية، وقـد أحيط بالبنت والأسد في وسط القضبـان. الكل يصفّف.. الـلي بحب النبي يصفّف يا جدع. ومطرة متناثـرة القطرات من التصفيق لا اقتناع فيه وإن كان فيه فرح، وهيصة. والـزئير الـواهن العظميّ له صدى بدائي مسحوق، دورة مذعورة أمام العصا والكربـاج، رأسه مائلة منكمشة ونظرته المنطفئة مثبتـة بـالتهديـد الماثـل أبداً، ثم وثبـة كقط منهوك عـلى الكرسي العـالي وقد اسـتراح من تعب اللف والـدوران، والعُرف الملبـد بالقـذارة والتراب متـدلٍ عـلى ضلوع نحاسية صدئة معفـرة. وهو يـدور ويتقلب على الأرض، يـدخل القفص من خـلال القضبان القـائمة ويخـرج منها. كـأن الحديد المنصوب خطوط ماثلة في ناظـريه وحـده، وهم مشقق لا يـراه أحد غـيره، ويصفق بيديـه ويلطم وجهه في رعب مصنـوع لاستهلاك الناس، وإعجابٍ موضـوع الخطة، وضحكـات قليلة تصل إليه، ونفحات هذا الكـائن ذي الألف وجه والألف عـين

والألف يد تملأ خيمة السيرك المهدلة المحتشدة بأنفاس بدائية أعمق وقعاً من الزئير الأجوف الخشن المبحوح. يستفزه ويستفزه هذا الجمع الوحشي الذي يتلمظ بتهديدات متهاوية الأركان فيريد أن يثبت له شيئاً ما لا يدريه. فهو مع الأسد وزمجرته، وتحت سيقان الحصان، ومع البهلوانات، ووراء الراقصة، وحول الحلقة، وعلى طول الحلبة وعرضها، يقفز ويقع ويتدلدل ويندلق ويتدحرج ويتدأدأ في هرولة ويتدرباً ويبرك على الأرض جامد الوجه مصبوغاً ويتهاوى وينط ويجري في دردبة ويتشيطن ويعوج خلقته المرسومة بالأبيض والأحمر للصغار والكبار ويطفح الدردي، بلقمته، في الليل والنهار. عندما فتحت عيني، على صهيل الحصان وحمحمته، كانت تقف على رأسي في الإصطبل، كانت قدمها في الشبشب المفتوح تدفعني في جنبي، بأصبعها الكبير، توقظني وهي تشتم شتيمتها الصباحية المألوفة، وثورة عاتية من صدمة اليقظة وألم الدفعة في صدري تهزني وتمخضني وتضطرم بجنوني ثم تنفثىء فجأة وأنا في خدر اليقظة المضطرب. وكانت واقفة في العتمة، في رائحة الدفء الحيواني الساطعة الكثيفة اللاذعة، والجلابية الرجالي تسقط على ركبتيها لتؤكد ملامسة مدورة ناعمةً فيهما، وقدمها اللدنة، بعظامها المكسوة المبطنة، مرفوعة في حركتها السريعة، بيضاء منبثقة، بحياتها المتحركة المشدودة، من عتمة الجو، ومن العتمة الداخلية الأخرى للثوب السابغ المنسدل. رفعت رأسي من النوم أحس أني أموت من اللهفة، في داخلي عصفور محبوس يتخبط في

ضلوع صدري، أصابه سعار انطلاق لا سبيل إليه، وجهي يتقلب على خيش المخدة المحشوة بالتبن والهشيم ويتعرف مرة أخرى ـ كم مرة؟ كم مرة؟ ـ على خشونة الخيوط الجافة المتربة، ويتلمس ـ عبثاً بلا جدوى، بلا طائل ـ رقة بيضاء في بطن القدم المكورة المسحوبة، في فجوتها التحتية الحميمة الناعمة. ومن الظلام يتقلب ثنايا عجين آخر متخثر وعطن، والبت عزيزة زمبلك قد نضت عنها فستانها رمش العين النبيذي وألقته عنها بسرعة وبلا اهتمام في حركة آلية، كما تفعل الفلاحات، وارتمت على الأرض، تريد أن تخلص وتفرغ من الأمر من غير عطلة، ووضعت الورقة أم خمسة شلن في مخبئها بين ثدييها الممتلئين، ورفضت أن تخلعه. زفرات الخيل النائمة، فجأة، تطس الرذاذ على التبن. والذيول تخبط صفحات الكفلين في توفز، تهش شيئاً في حلم الليل، وخيشة الفرش الخشنة تتلقى العجينة المسكوبة على الأرض وطوايا اللحم ما زالت عالقة بها رائحة البودرة التي تفرش بها كل إمتدادات جسمها كل ليلة قبل الرقص. طنين الهوام والبعوض الصغير تحت نار الكلوب الوحشي النهم. وقد تضرجت، وزوقت كل بضاعتها المتراكمة للعيون، يا قشطة، أيوه كده يا مهلبية، أموت أنا، نظرة يا حلو لإجل النبي، وهي ترقص، على وجهها فتحة ابتسامة منسية، وهو يتقلب، من ورائها على الحلبة، تحت ألف عين، وحواليها، طول الليل يتدحرج ويهرّج، يستجدي الضحكات النزرة، ويطيّب لكل النِمَر، من الأسد للراقصة، من الكلاب للحصان للبهلوانات،

بوجهه المرسوم بالأبيض والأحمر، ببكاء مصبوغ دائم، وينطلون مهدل مرقع بكل الألوان، وضحكات الجمهور وهتافاته البذيئة، مع موسيقى الرقص المتراخية، كأنها هي أيضاً تؤدي واجباً بلا حماس. وهي تدفع بساقيها الثقيلتين، وترفع قدميها الحافيتين من على التراب، في غير اقتناع، تهتز وتنثني، رازحة، وهو يثب ويقع، يؤدي شغله، وجهها المتضرج المزوق فريسة للنور، بحواجبها الممسوحة المرسومة من جديد بخطوط سوداء وكحلها الثقيل، ما زال حول عينيها المفتوحتين الجامدتين في غبش الإصطبل بقع متقطعة من السواد. ويقع الأحمر المستديرة على وجهها تلمع، يا زمبلك، أوعى السوسته، شفاه مصبوغة لحيمة تحت النور القاسي، بلون قان كالدم اليانع يتجاوز شفتيها المفتوحتين إلى أطراف الفم الملوث بنضح الدم المتجمد، ولغت فيه وشبعت، وصدرها الضخم المترجرج يكاد يثب من بدلة الرقص الساتان الصفراء الفاقعة، وهي تلف بذراعيها المدمكتين، حول ظهرها، طرحتها الشفافة السوداء المشغولة بالترتر الأحمر، تخفي أطرافها الممزقة بين يديها، وقد علق بها تراب أبيض باهت. أصوات رشفات غليظة متلاحقة من ألواج البريمو من أكواب الشاي الأسود الزارد وقرقرة مياه الجوزة ودخان المعسل وهدير الكلام وضجيج السيرك والمولد معاً يكاد يغرق الموسيقى النائمة المتباطئة، وصبي البوفيه يقرقع بملعقته في كوب الشاي على الصينية. والعرق قد ساح بالكُحل وسال بالبودرة على ثدييها وجوانب خصرها المتين، يخط خطوطاً خمرية لامعة

على الجسد المكتنز المبذول للأعين والشفاه التي لا ترى ولا تجد فيه طعماً. وقد فرغ دورها وخرجت، حافية، قدماها تحتكان بالرمل والتراب، دون أن ينتبه أحد، والأضواء على الحلبة انطفأت، وجاء إليها وهي تنهج، وما زالت على وجهها ابتسامة دمٍ منسيّ داكن، ولفّ حولها الروب الأحمر الرث دون تصفيق، فلم يستعدها أحد، والناس في عنفوان الليلة يقومون ويتحركون ويلغطون والجوزة والقهوة المضبوط والشاي الكشري تدور وتتلقفها الأيدي والشفاه في الاستراحة بين الألعاب، وأحس كتفيها تحت ذراعيه، وهو يحيطها بالروب، كأنه يحميها، ضئيل وراء ضخامتها الساكنة، ملطخ مثلها لا أحد ينظر إليه، وبينهما فهم مفاجىء دفيء، سرعان ما مضى، ولم يتكلم أحد، فهذا من ضمن الشغل، عليه أن يلبسها الروب وهو يهرج، لكنه الليلة صامت، قد أهمل شغله، ونظرت إليه نظرة واحدة، غريق يستغيث دون صوت، من عينيها المدفونتين في الكحل ولحم الجفنين المترهل والتجاعيد المكتنزة الملوثة بالألوان الندية بالعرق الدهني، ثم انطفأت النظرة وغاص الغريق. وهو الآن وراء الست أميرة في الاستراحة، الاستراحة ليست له، يدور ومعه صور باهتة الزرقة مطبوعة بالحجر بالحروف الثلث البهلوانة العالمية أميرة تروض سلطان الفرس العربي الأصيل، وفي يدها طبلة ورقّ تهزه فتجلجل صناجاته الصغيرة وفي يدها الأخرى صينية يلقي الناس فيها بالقروش التي ترن والأوراق المطبقة أو المفرودة المغضّنة يكاد يطير بها الهواء وابتسامتها متملكة

آمرة كأنما تقتضي حقاً وتتـأدى دينا، والمَحـافِظ الجلدية الصفـراء تخرج من العبّ معلّقة بالدوبارة المتينة وتنفرد طية بعد طية ليستخرج منهـا الشلن الفضة أو القـرش البرونـز أو أم عشرة المـطبقـة أربـع تـطبيقات متـوازنة، وهـو يسلم صورة ويهش الأولاد المتـدافعـين عليه، وهي لا تكاد تنظر إلى الفلاحـين أو الأفنديـة، بل تنتقـل بخطى رشيقة، في المايوه الأبيض الـلامع المـطرز بالـترتر، وسط ركام الجلاليب والمـلاءات والقفاطـين والبلاطي التيـل الكالحـة، ومن الناصحين من يقوم قبل أن تصـل إليه، ومنهم من يتشـاغل في حـرج وعيناه لا تستقـران على شيء، وهي تستنـد إلى الـواح الخشب وترتقي السلالم المتـأرجحة، حتى وصلت إلى العسكـري الضخم المفتول، والشرائط الحمر عـلى كمّه الأصفـر، يجلس في البريمو، راكز الأركان، متين المنكبين، في عنفوان رجولـةٍ مسيطرة وصولة لا يُخافِت بها، وهو لا يكاد يلقي إليهـا بنظرة سـاخرة من علياء هيكله المحتشد بالقوة والغلواء، نظرة إعجاب صريحـة فيها الـدعوة والسخـرية معـاً، نظرة ثـور قوي وذكي أيضـاً، يعـرف استجابة أنثاه المحتومة. درت حواليهـا أستبقها كـأنما أدعـوهـا أن تمر، فما في هذا البغل من جدوى. ولن يعطينا شيئاً، وقـد فارت نفسي وأجهشت واعتمل في صدري الذعر واللجج معاً، ولكنهـا تلمس كمه بيدهـا، برقـة، وتهز الـرق، وعندمـا استرقت النـظر إليهـا رأيت التواء فمهـا بحركـة احتقار مـدربة، كبنـات مصر، حركة تحرش واستفزاز واستجابة، تستنفر وتتحدى، وتعـد بمجرد التحـدي. ومـد يـدَه البغـل ببطء إلى تحت الأزرار النحـاسية

الـلامعة واستخـرج قطعـة بشلن، ورماهـا إلى الصينيـة، فـرمت هي إليـه بعينيها، وأحـرقتني العينان. لـذعة لهيب منبثقـة بطول أحشـائي وعـرضهـا، شريط كـاو أحسست جـوفي يستشيط منـه وتنسلخ منـه مزعـة متقـدة بـالنـار. وقـالت لـه، كبنـات مصر، بهمس: مرسى، من أعماق عينـين مثقلتين مضـطرمتين، ومـالت عليه ميلاً لا يكاد يحسه أحـد، وإن كان فيـه دفء غريب حميم، وهي التي لم تشكر أحداً غيره، مهما أعطاها، وطول الليل أتقلب وأدُور، في حلقات من الظلام والجنون لا تنتهي، ألف قطعة من نار مؤرثة الأوار لها حرقـة لا تنطفىء، ويهجس في نفسي ويـوغر صـدري ألف خـاطـر مجنـون عقيم يتحـطم أمـام صـلابـة صـماء مسدودة، وبكيت كالأطفال، بحرقة بكاء الأطفـال، بلا أمـل في أن أحداً سوف يفهم أبداً، في استسلام كامل لنفضـة الدمـوع، ولم أخجل، وفي أنفي وقلبي رائحة الـتراب الجاف. من أنـا؟ لا شيء. لا أحتكم من خـير الدنيـا على شيء. صحيـح أنني دائـماً مفتـح العينـين، لسِن طلق اللسـان، صـوتي في الجلبـة مشروخ مبحـوح ولكنـه أعـلى الأصـوات، ثم هـأنـا في الليـل، معـدم، عـريان، يعـوزني كل شيء. ولكن لا يعـوزني أنني أحبهـا. هـذه ثـروتي، كنزي، لا شيء. عبيط وأبله. وحـدي. ووحيد. أمـام ثـروات الخيل النـابضة الجسيمـة. وعظامي مكشـوفـة للهـواء، مفكـوكة، لا يـربط بينها شيء. في مـرة قـالت لي: إشمعنى مـع البت عـزيـزة زمبلك بتشتغـل بقلب، ومعـانـا بتلف كـده زي المسطول، ويتشتغل من غـير نفس، بطّل بقي وسـاخـة يـا بن

الكلب، ووجدت نفسي أبتسم من ورائها وفي داخلي عربدة مكتومة من الفرح، وحس سعيد أن عندي شيئاً له قيمة تطلبه، وتفتقده، تظن أنها تفتقده. مَنْ هذا الذي يئن من أعماق أحشائه، كأنه مضروب في قلبه بسكين، ضربة الموت. أنين غائر غريب، في الخواء. أنين لا يقصد به شيء. لا ينادي محبة ولا عطفاً، لا يريد يداً تمتد إليه. أنين خافت، خاص، حميم، بينه وبين نفسه، عقيم يصدر من جوف الأرض، من تحت طبقات لا نهاية لغورها. أنين محبوس مكتوم لا يدعو شيئاً، لا يعرف شيئاً. والموسيقى تضج حول كل شيء، تهيء الأرض لآخر لعبة. والولد الصغير يمدد جسمه على البساط، والبهلوانات، في شبابهم وقوتهم ومرحهم، يعابثون الولد ويجربون قوة احتماله، فسوف تتكوم عليه أثقال البهلوانات جميعاً، ساقاه الرفيعتان وبطنه المتهافت سوف تطيق عبء كل هذه الأجسام الفتية بالحياة والعضلات. أبو جلمبو صغير وبائس ورث، خرج من الماء، وسوف تقوم على صدفته الهشة أعمدة العظام المتوترة تعلو في بناء يتهدد دائماً بالسقوط، والقوقعة الرخوة تستميت في التمسك بالأرض، وتعدّ نفسها لمؤونة احتمال أثقال هذا البرج على القشرة الرقيقة القابلة، في كل لحظة، للانكسار. ولكن أخته تثب فجأة من فوقه، إلى الحبل المشدود، طفلة أنثى تتلوى على حافة الهاوية، بملابسها العريانة الصغيرة، فتائل الحبل وحدها ترفعها في الهواء، في الضوء الفسيح، وهي تنحني ببطء، وتميل، وتثب فجأة فإذا هي نائمة

مشـدودة على الحبـل، اعضاؤهـا المنهكـة منبسـطة ممـددة إلى آخـر حدود الامتداد عـلى الشريط المهتز الـرفيع، وثـدياهـا البرعميـان النابتان يرتفعان من منحدر الصدر النحيـل، نحو السـماء، وهي في حركة تمـددها عـلى الحبل تتلوى، وتلتصق، وتتـطلب، كأنمـا تمتص من هذا الشريان الملفـوف عصارة البقـاء، تنزح عنـه آخر استنفـادات الحب والماء النـزر الذي يـظمأ إليـه عودهـا الأخضر الخام الغليظ الملمس، ثم يدق الطبل دقاته المتـلاحقة، ويتقـاطر التصفيق في غير حماسة، في تردد وانتظار. ويُعَدّ المشهد المضحك الأخـير وهو يسرع فجـأة فيشد البسـاط الناصـل القذر من تحت الولد، ويقفز الطفل فيعطيه صفعته المعتادة، ثم يعود فيرتمي على قاع الأرض، ويعلو صخب الناس وعجيـج الموسيقى، والنـاس قد حميت دماؤهم من لغط المولد وسورة المعسل والشـاي وامتلاء الفم بعجين الحمص وطعم الحلاوة الحاد، بالسـمسم والسوداني. وصرخات باعة الكبدة ولحمة الراس والبمبـار من وراء القماش، كل واشبع واقرأ الفاتحة للسلطان، دويّ أمواج المـولد المتـلاطمة في خـارج خيمة السـيرك، مـع هينمـة حلقـات الـذكـر المتـمايلة ولهاثها، ومزامير المواويل ودفوف المداحين التي نشطت ولجت بهـا نشـوة جـامحـة، ورقصـات الغـوازي قـد امتـلأت بهـا الإيـدي والعيون، وفاضت، وهمهمة نيران المشاعل على عربات العرائس الملونـة بأجنحتهـا الورقيـة المفضضة كفـراشات مـزوقة حجـريـة العينيـن، مستديـرة ببطونها الـلامعة من السكـر الأحمر، ودقـات البمب وخبـطات ألعاب الحـديد، في حميـا آخر الليـل التي تكاد

تصل إلى ذروتها، ودوار الدخان قد اتصلت حلقته. وسوف تنطفىء الأنوار قريباً والجذوات الملتهبة في حلوق الفخار التي تفح بدخان المعسل، وتمهد قرقرة للياه المحبوسة المضطربة، وتخبو المشاعل على عربات الترمس والحمص والبلح، وتغدو رماداً خشناً لا يحيا. يقظة متوترة أخيرة تجتاح كل شيء، انفعال متوهج، وتطلب حميم قلق مشعوف الأصابع لا يقع على شيء ولا يمسك بشيء. والولد الصغير يمهد لجسمه الناحل نومته المشدودة على الأرض، يحفر بصفحتي كتفيه مستقراً وطيداً للأثقال التي سوف تتركز عليهما، ويتلمس الأرض تلمساً وثيقاً مدعوكاً، يمتح منها معيناً ضنيناً من قوة مدفونة، ويدفع نفسه، متمدداً، متوتراً، مغروزاً على التربة الصلبة التي سوف تصد عنه الانهيار، وتتلقى وطأة البنيان المشيد المقام على عظمه، في الهواء. والأجسام تتراكب فجأة فوق هذه القاعدة التي تبدو هشة رقيقة، الصدور مبسوطة ممتلئة الأشرعة تقاوم الزلزال، واندفاعة الحياة صاعدة نحو السماء، يهددها خطر لا ينزاح. تَطوُّع استحالة، وتتفطر أمامها النفس جزعاً. ودق الطبول ينصب الآن في انهمار حاد سريع، والسيقان والأذرع الأنثوية تمتد مفتولة وناعمة وعضلة بين خشونة هياكل الرجال وعظامهم الوثيقة، الأعضاء كلها متلامسة في نقط محسوبة متماسكة، تمتد، وتستمد توازنها من قشرة رفيعة متوترة ملتصقة بالأرض، تُصعِّد أنفاساً لاهثة محكومة، تنمو منها سيقان وأذرع وأطراف مهتزة ممدودة متخلعة مزعزعة وثابتة معاً، كحيوان واحد نابض قد تخلق فجأة، في

لحظة واحدة، ويقوم منتصراً، في الهواء. لحظة واحدة، من الرشاقة، والخفة، والاكتمال. مجرد لحظة هاربة، من الثبات المتطاير الهفهاف، يحلق منتصباً، ناهضاً على أعمدته الهشة القوام الراسية الجذوع. ريش نسر واحد مبسوط الجناحين، يقف، مشدوداً في أعالي أطباق السماء. ثم يتضعضع، ويتقلقل، من علوه، وتتخلع أوصاله، وينهضم. وينهار متهاوياً في زلزلة انقلابات متفجرة وشظايا مفتنة تستدير في كل ناحية كأنها قطع مكسورة منفلتة من آلة هشة انتسف محورها وانحطم، والطبول تصرخ صرختها النهائية مع صفقة النحاس المدوية المرتعشة الأخيرة، وهو يتقلب على جنبه، وجههما ينحني عليه، مضرّجاً لامعاً من العرق، مشرقاً باهراً كقرص الشمس، عين لا تعرفه، وجه لا صلة له به، صامتاً في بهرة الوحشة المتوهجة، لا رسالة فيه، لا يقول شيئاً. دهمه الوجه، في لحظة خارج الزمن، وأمسك به، حبه القديم يعصر قلبه حتى الجفاف ولا ينتهي أبداً تقطُّرهُ.

تدلى وجهه المعفر الملطخ بالأبيض والأحمر نحو التراب، كرأس معلق أمام دكان من دكاكين الجزارين، ساقط إلى أسفل، مرشوق بخطاف حديدي أسود، مفتوح العينين. وجه غاض منه كل نداء، لم ينفتح على حرارة ما. وقد طويت عظامه الرقيقة، مهدودة، على نفسها. ليست بحاجة إلى شيء. وهم يدخلونه إلى الإصطبل، إلى دفء الظلمة، إلى الحنايا الوثيرة من عجين الأرض الغنية، وينفضّون من حوله، وأصوات صغيرة تتنادى، بحثاً عن نجدة لا جدوى فيها، لن تجيء..

برج مفتوح

النافذة مفتوحة على بحر الليل المضطرب، وهواء الصعيد الجاف له موسيقاه، ومن الداخل تأتيه رائحة الطلاء على الجدران الجديدة، تحترق من الحر. وهو لا يكاد يتبين قامات الرجال، كالأعمدة، أكتافهم حجرية، تحت ثيابهم الفضفاضة، كأنهم ليسوا هناك، في ظلام الشارع الضيق، في البعد الغائر العميق. بِرَك النور من الفوانيس، آسنة، تطفو عليها سحابات الهاموش الليلي وهي تموج، من غير صوت.

القبة العريضة صدر ممتلىء بشهيق محبوس، لا ينفرج أبداً عن زفير، وقد انعقدت عليها طبقات مترسبة في نقش مطموس المعنى. والسقف الواطىء المتين يقطعه ضلع مكسور التام بالتراب القديم، ويصعد منه البرج المربع القصير، تأتي السماء الصلبة من ورائه، وتخترقه، وتثبت فيه، مثقوبة بإبر مشعة لا عداد لها، بين الجوانب الراسخة السميكة. جرم الجرس الضخم المعلق، أخرس ملجماً، يُثقِل البناء الجاثم، تحت، في وسط ربوة الأرض المنحدرة، مدفونة فيها درجات السلم

الرخامي الناعمة المدورة الحواف يتخايل له وضحها الباهت، من عالم سفلي.

وهو يستدير إليها جالسة في النور الأزرق الناصع الذي يتقد، مدلى من الحبل الأبيض الرفيع المضفور. ساكتة، محنية رأسها، شعرها جدائل كتان سوداء كثيفة، يفور تحت الطرحة التي علق بسوادها التراب. ساقاها، حتى القدمين، تحت الجلابية الضافية، ممتدتان إلى جانبها، هيكل ساقط بين حقول الكليم الصوفي الخشن النبات.

ـ أجِيَّه.. أجِيَّه.

يربطها هذا الدم الواحد الرازح الوطأة، وهذه العشرة فدادين من الأرض في حضن صخور الجبل.

كانت خطواتها، طول عمره، حذو خطواته. قرينته، يحسها معه ولو كانت غائبة، يحس وقع نظراتها عليه، صابرة مطيعة، الأخت التي لا عوض عنها أبداً، معه في كل مكان.

ـ اسم الله عليك، وعلى أختك.

كان صوت أمه يجيئه، ملهوفاً، يقيله من عثرته، عندما يقع على العتبة الرخامية الممسوحة.

ـ أنت الآن أبي، وأمي، وأخي معاً... قم الآن كل لقمة.. قم، تنام وتستريح سحابة الليل، حتى يصبح الصباح.

كان مكسوراً، خاوياً، في آخر الليل. فقد كل ماء الحياة. عيناه حجريتان نضبت عنهما كل عصارة. في عينيه الحفرة الطينية

التي أسقط إليهـا النعش. وما زال صـوت الـتراب، وهـو يسقط عـلى الخشب، يغص له حلقـه ـ ارتياح آخـر الأعمدة في حضن الأرض ـ وكان يغالب إجهاش الشهيق المكتوم..

ـ نام يا خوي.. يا خوي! يا بوي! يا بوي..!

صرخة اليتم الكاوية التي لا يندمل جرحها أبداً. لقـد انقضى آخر يوم من مجدها.

مـاذا حدث الآن؟ مـاذا يحدث؟ كيف يـطيق مـرآهـا؟ كيف تثبت عيناه بهذا الوجه الصغير الرقراق الذي تخفي نصفه الطرحة السـوداء، ولا تبرحـان؟ ولا يسـتطيـع أن يحـول بصره عن هـذه القامة الناضجة العذراء تنسدل الجلابية على ثمرتيها الراسختين، لهما نداء آمر النبرة، فيها ثبات لـدن، بقوتـه الخاصـة، وتحديـه، بمطالبته الخاصة التي لا يمكن أن تهدر.

يدها الأخرى، بأصابع طويلة عظمية، تمسك بقماش الطرحة الـرقيق عـلى صفحـة وجههـا. عينـان تنـظران إليـه، مـوجتين هادئتين، من وراء كل الزمن.

قدماها الحافيتان لا يكاد يند صوت عن وقعهما الرخص، على البلاط الممسوح في الطرقة، وفي يـدها الشـاي، موجتـه الصغيرة وراء الضفـاف الشفـافـة تهـتز عـلى قـاعـدة سميكـة مـدورة من الزجاج.

وهو يرد سماء الليل بيده، خارج النافذة، كل الوحـوش الآن في الخـارج، محبـوسـة. ويهـتز مصبـاح النـور العـاري لصـوت

الاصـطفاق المكتـوم. هما الآن في سجن جـديـد مضيء، والعـمارة العالية كلهـا تحتهما بـرج هش من الطوب والإسمنت والبـلاط، تصطرع في قفصه العلوي حمامتان.

وهو يضع كوب الشاي على زجاج الكومودينو المصقول الـذي يبرق في النور، ويشدها إليه، سلسة، منقادة، لا تكاد تعترض:

ـ لا يا سيدي.. لا يا سيدي..

ويـدفعها بجـانبـه عـلى السريـر، ومـا زالت المـلاءة البيضـاء المفروشة تشع بوهج النهار.

كـانت مع أبيـه من قبل. خـدمتهم كلهم. وعى لنفسه وهـو يـراها، كـما هي، لم تتغير، الأيـام تـرتفـع وتنحسر وهي نفسهـا أجيِّه. هذا الوجه البني المحـروق، بعينيه المخـطوطتين بـالكحل الطويل، سوادهما عميق، صمـوت، ومتسائـل، صورة مـدفونـة بين صفحات الكتاب القديم الذي كان يقلّب رموزه في طفولته، والأنف الأقنى الصخري، ناعـماً وحساسـاً مع ذلـك. قالـوا أنها كانت عند جـده، وكانت أيضـاً هناك عنـد آباء جـده، من أيام جده السابع القديم، ذلك الذي جاء، لا يدري أحـد من أين، ليستقر هنا، ويشتري الأرض، رملية مالحة هنـا، وسوداء غمِقـة هنـاك. جففها، وغـطاها بجسـده وعـرقـه، حتى اخضرت بـين يـديه، وامتـدت إلى النيل. لم يبق منهـا الآن إلا العشرة فدن في حضن الجبل.

وكان يستيقظ في الليل فزعاً يصرخ من حلم، فـيرى وجهها،

هـو نفسه، وديعاً ساجياً، في نور مصبـاح الجاز تحمله بيـدها، وتمسح العرق عن جبهته باليد الأخرى، نـور يأتيـه في الظلمـة، بـاهراً كـالنجدة، فينـام ودفـء صدرهـا يطرد الاشباح عنه حتى مجيء النهار.

وفي ليل طفولته كان يعرف أن دم الفراخ المـذبوحـة، والبط، والحمام الصريع قد ينبجس ويرش رخام عتبة البـاب، فلن تعود تجري وتنق وتلقط الحب في الحوش، تحت الزير، كان يعرف أن القطة التي يجدها في الصبح مقلوبة على ظهرها، منتفخة، في تراب الشارع، لن تعود لتموء، وتسحره، قبل أن ينام. وكـان يخاف أن يموت أبوه، ويخاف أن يأتوا ليرفعـوا إخوتـه من فوق الـتراب، لا يتحـركون، فـلا يعودون ليلعبـوا معه أبـداً. ثم ينسى ذلـك كله سريعـاً. وكان يعـرف أيضـاً أن أجيّـة لن تمـوت، لا تمـوت. ولا ينسى. كـان في دفينة حسـه مكان لا نسيـان فيه، فيـه أمن معتم صاف وراحة نهائية، كأنه يلعب وحده تحت السريـر في مكان لا يصل إليه غريب.

سـاقاهـا عمـودان من حجـر أسمـر دافيء، منحـوتتـان. وفي الحجـر الوثـير شرايين دقيقـة زرقاء، نبضهـا يرتعش، لا يكـاد، تحت يـديـه. في أصـابعـه حنـان ملهـوف، وشفتـاه تتمـرغـان في اللدونة المتماسكة، ربوات ترتفع إلى غيـطان الجسد الممتـدة حتى الأفق. ويـده تـدور بـالخصر الصغـير المضيم، تحت القميص السـاتان الأخضر اليـانع، تحـدس هيكل الأضـلاع القويـة تحت النعومة. الخضرة في نسيج القماش المـرفوع عـلى صدرهـا، ينبثق

منها النوار والأزهار، في خطوط متقاربة، ومستأنسة، وشامخة، وعصية. عيناه غارقتان في أمواج الزرع، حتى مدى البصر. والهواء يحمل إليه رائحة الماء الذي يجري تحت هذه الأرض، رائحة تراب مرويّ، حريفة، ومنعشة.

وفي كشف سريع خاطف تتبدى له امتدادات عارية، ملساء، على الجنبين، يحتضنهما. بل يحتضن جانبي العالم كله. العالم راقد بين ذراعيه اللتين تضمان كنزاً شاسعاً مستحيلاً، بربواته ووهداته الطرية. بين ذراعيه صحراوات مقفرة خاوية، لينة، ومشدودة، ومتموجة، فوق صخور العظام، ملاستها تحت أصابعه، ذرات دقيقة مصحونة جففتها وسحقتها شمسُ رغبةٍ لا تنطفىء، وليال ساطعة لا نهاية لها، من الانتظار والوحشة.

وهو يشق القميص اللامع الساتان، بعنف.

ويده ترتفع إلى الجرح المشقق المتشعب الخطوط. عنكبوت مدموغ بخيوطه المتفرعة السوداء، مكوية. عروق حجرية غائرة في اللدونة المدورة السمراء.

كانت الصرخات الثاقبة تنوح في خواء السماء، متتالية طويلة، تنادي وتستنجد، والهواء قد خف فجأة، وتخلخل. والأصداء تتردد، وتتضخم، بين الشوارع الضيقة وجدران الحجر والطين القديم. الليل كله يتدفق وينزف في هذه الصرخات، حاشداً بنذير غامض يدق على أبواب القلب. ثم جاء الصمت، وسقط كاملاً، مسدوداً. حتى لقد كان يسمع له

صوتاً، في مجرى دمائه، في موج مسارها الذي لا يتوقف.

وكانوا قد خرجوا من البيت، وراءه، على خطوتين منه، أولاد أعمامه، تاوفيلس، وجيصر، ومينا، خطواتهم تتباعد وتتقارب، وعلى أكتافهم البنادق في العتمة، جامدين لا يهتزون في مسيرتهم، بإرادةٍ لم يعد بوسع شيء أن يوقفها. ليس في وجوههم إلا الجفاف.

كان الخبر قد جاءهم في أول الليل: أسرعْ، أجية سقطت مصابة في الغيط. وصرخت النساء، ثم صمتن. قالوا إنها بخير، ولكن حسه أنذره أنهم يدارون عنه، قالوا جريحة فقط وإن لم تستطع العودة للبيت، ولكن حسه أنذره أن الجراح لم تعد من تلك التي يُستدعى لها الطبيب، قالوا جاءتها النداهة وطلبت ماء، أو الذئاب، لا ندري، أو لعلهم عربان الجبل، ووثبت عليها، في عودتها إلى الخص، في آخر العشرة فِذْن، ولكن حسه أنذره أنه هو الذي اغتالها، وأسقطها، قالت له في الصبح أنها ستقضي اليوم في الغيط، وتزور أهلها، وتسأل عنهم، عيب يا خوي أن تمر السنة من العيد للعيد ولا نحمل لهم هدية، هؤلاء ناسنا وأقرباؤنا، والحريم ليس بوسعها أن تأتي إلينا هنا في البلد، حرام، وأنا أشتاق إلى مجلسهم والسؤال عنهم، أما الأولاد فيقضون اليوم عند أخوالهم، والأكل جاهز، والعيش طري، خَبَزْنا البارحة، ولن أغيب عن البيت إلا سحابة اليوم، وليس للمرأة أن تغيب عن زوجها، صحيح، ولكنها سحابة يوم وأعود. ولم أكن راضياً، كنت أحس النذير، لكني

سكت، سكت، في جبن، كان سكوتي عن خوف أيضاً، وتعلل بأكاذيب هشة، أعرف في صميمي أنها أكاذيب هشة، مهما بدت مقْنِعة: ليس هناك من بأس، هذه العصابات قد انقطعت عن الإغارة على العمار منذ زمن بعيد، وانصلح حالها، والذئاب؟ أين الذئاب؟ لم يعد في الجبل ذئاب تخيف أحداً، وهم هناك قد قطعوا دابرها، ويستطيعون القضاء عليها بضربة فأس واحدة، أو ضربة من شمروخ، وها هي ذي الآن قد سقطت، هل ماتت؟ ولم تجد نجدة؟ لم أكن هناك، كانت وحدها.

ـ أجيَّة.. أجيَّة..

لم يرد عليه أحد.

كانت أجسام الفوانيس واقفة، خضراء صدئة مشوقة في الليل، تُقبل عليهم وهم يسيرون في الشوارع المتعرجة، تلقى النور على بيوت الخشب البغدادي، على النوافذ المصنوعة من ضلفة واحدة، مصمتة ومشققة، على عروق التبن وآثار خطوط الأصابع البارزة في الجدران الطينية، على أكوام التراب وريش الطيور ونفاياتها الجافة، على الأوراق القديمة الساقطة على الأرض لا تتحرك، كأنما لا وزن لها.

كانوا قد تركوا حدود البلد. وكانوا يشقون الغيطان بين عيدان الذرة الطويلة الخشنة التي يهب عليها هواء الليل فيسقط عنها حفيف مثقل بالتراب، وكان صوت المياه يأتيهم من الظلام، تنسرب وتخرخر في القنوات الضيقة الموحلة، شحيحة، صوت أنفاس صعبة في صدر عظمي شيخ، ولكنه عنيد.

كيف يمكن أن أتـركها؟ في دمي هي، في عـظامي، مجـدولـة بنسيـج لحمي، التراب الـذي في يـديهـا عـالق بجـدران قلبي. وجهي لا يعـرف له مـأوى إلا عـلى فخـذيهـا، وتحت ثـدييهـا. هنـاك، هنـاك فقط، عـلى أرض لحمهـا الـــدمثة بيتي، في تلك الخصـوبة الكثيفـة الزهمـة. هناك تسقط عني مخـاوفي وعذابـاتي، وأجـد راحتي وأمني. وأجد عـذابات أخـرى في راحتي، ومخاوف أخرى في أمني. هذا كل مالي من راحة وأمان.

لنسج القميص وهو ينشقّ في السكـوت المطبق صـوتٌ كنفث الفحيح المفاجىء.

وهو يدير وجهها إليه، وقد سقطت الطرحة من على السرير، وتمـوجت وهي تتطايـر إلى الأرض ببطء مفروشـة تغـطي جـانب الشبشب المقدد المشقق الجلد على الكليم.

وندى من العرق الخفيف، يتفصـد قطرات دقيقـة، دقيقة، في زرقة النور البيضاء، يكشف عن منابت شعرها الغنى الأثيث على الجبهة المدورة السمـراء. وينهمر شعـرها، في حـريته الجـديدة، أمواجاً وفيرة سوداء، على ملاءة السرير.

وهو يرفع وجهها النقي من على السرير، ويـديره إليـه ببطء، وهي لا تقاومه، طيعة، عيناها مفتوحتان. ويده ترتفع إلى الخـد الممـزق من تحت العينين إلى عـظمـة الـذقن، بجلده المشـدود، مجعداً، ضامراً، متقبضاً. شوهته ندوب كالشعيرات. متعرجـة. جافة. تسطع بينها، فجأة، مساحات صغيرة نضرة، رائقة بريئة

من كـل شائبـة، في سمرتهـا الحية الغضـة المنعشـة، وسط آثـار أرجل عنكبوت الجراح القديمة التي التأمت على شبكات من نغْل دقيق صلب ومتجمد.

الجدران ساطعة خضراء ملساء.

وهو يغطي خدها براحة يده المشدودة بحركة مفاجئة قـاسية، يحس قلبــه يتقبض من حنـان لا يــطاق، والأنفـاس تنحبس في حلقه، وعيناه، على الرغم منه تغرورقان.

عنـدما خـرجوا من آخـر الغيطان، كـان الرجـال سـاكتـين، جالسين خـارج الخص، أمام المسـاحة الضيقـة التي تتعثر القـدم فيها بالحصى والشقاف، ويختلط فيها الـرمل بـالتراب، حتى تـأتي الأحجار الناتئـة الهشة والصخـور التي ترتفـع إلى صدر الجبـل. ومن خلال فتحة الباب، كانت الفتائل المشتعلة تـدخن في كيزان المصابيح القديمة السـوداء بجدرانها الصـدئة الـدهنية، وتهـتز في الجـاز العكر الثقيـل، وتلقى أضواء وظـلالاً متراوحـة لهـا ذيـول وتعرجات على الساحة الرملية.

وكانت لمة النساء متحلقة في الداخل حول بذرة مـوضوعـة في وسـطهـا. مـلابسهن سـوداء، والـطرح سـاقـطة عـلى الأكتـاف العظمية. وكانت تأتيـه من بعيد أصـوات لغط الكلام الحنـون، وثرثرة المواساة والتهوين.

كـانت حمرة النـور تتوهـج له من بعيـد، داخـل الخص، من مصبـاح الجاز الـزجاجي الـوحيد المشرق وسط فتـائـل الكيـزان

الصفيح. بؤرة تتضرج وسط الخلاء تحت الجبل. آخر عيدان الذرة في الغيط، محلولة الشعر، تهتز في حرارة جنازة مظلمة، من غير صراخ. ضلوع الجبل وترائب الصخر المدرَّجة صاعدة، متربصة، متهددة، نحو سماء قاتمة الزرقة، قاحلة حادة الجوانب.

هب الرجال من جلستهم المرهقة على الرمل والتراب واقفين عند مقدم الموكب الصغير، وانفرجت حلقة النساء وابتعدن يلتصقن بالحيطان الطينية في داخل الخص الضيق المزدحم بأقفاص وبلاليص وشيلان وحزم الحطب وأقراص الجلة الجافة وسلال البصل والقدور المدورة السوداء. طيور ليلية داكنة تهرب إلى الجدران، وأجنحتها ترفرف وتصطفق، أصواتها تهبط إلى صمت قلق، وعيونها لامعة، بعد آخر دفقات الزقزقة والنقيق.

كانت عيناها واسعتين، سوداوين، في النور المحمر، بهما نظرة ثابتة حارة. وكانت ساقطة، في هدوء كأنه الراحة، على بطانية في لون البن المحروق، مطوية فوق الحصيرة الرثة. وكانت تخفي نصف وجهها بالشال الأزرق الداكن الزرقة الذي ينتهي بشراريب مليئة دسمة بخيوط الحرير، تسقط على صدرها. انحنى، وأزاح الشال. كان الدم المغسول بمياه عكرة قد بقيت منه آثار باهتة مختلطة بخيوط متقطعة من التراب، على جانب الوجه الصافي. كان أنفها الأشم متوتراً، وشفتاها الرقيقتان لونهما أبيض في النور، مزمومتين على سر لن تبوحا به أبداً، وفستانها الأسود ممزق، منهوش، وقد تصلبت مزق النسيج

بالدم المتخثر اليابس، تتخايل من بينها أطراف مشعثة من قميصها اللامع ولمحات تدوب جراح طويلة مشروخة في اللحم المكدوم الأسمر الغض، على الصدر الناهد، وقد نفرت على ربوته تورمات زرقاء مفاجئة، مشقوقة في وسطها بخطوط الحمرة الداكنة.

كانوا قد تربصوا خلف الخص، وسقطوا عليها، على هذا الحصير. كانوا ثلاثة، أو أكثر. وكان النخل، في رأس الغيط، تحت الجبل، هو الشاهد الوحيد. كان المغرب أحمر، يزرق وينطفىء، ويتهدم وراء الصخور القليلة الارتفاع.

كانت الأذرع قد أحاطت بها، كثيرة، وثيقة صلبة، كالكلابات، وسقطت تحت هجمة السيقان. كانوا قد أسندوا بنادقهم إلى الحائط. وتمزقت تحت اندفاع صخري وحار. هل صرخت؟ أم كانت غائبة، نعم، وراضية.

كانت قد انقضّت مرة واحدة، متزاحمة بأجسامها القضيفة القوية. لم تكن تنبح، بل كان لأنفاسها كرير عميق خشن يتردد بين جنبات الصدر الأجوف وعيونها شعلات صلبة. كانت تدور حولها، وفوقها، تعانقها بسيقان مستدقة مشعثة الشعر، تحاصرها، وتنفذ إليها، وتفترش لحمها. كانت المخالب تخمش الأرض الطينية، تحفرها، في احتكاك له قشعريرة. وكانت تحس انسحاب المخالب، حادة باردة، على خدها وصدرها، صاعدة هابطة، تترك وراءها شبكة من حفر نارية دقيقة. كانت الأيدي

المتوترة المنهومة قد كشطت الجلد في خطوط متقاطعة، والأنياب الطويلة العاجية المبلولة تنزل مرة واحدة، وتغوص، والشدقان مسحوبان إلى الوراء، واللهاث الجاف يملأ هواء الخص برائحة الذئاب التي لا تطاق.

كان في الخص، في حرارة الليل، نفث ثقيل كأنه من رائحة عجين مكمور تحت البطاطين الثقيلة. رائحة أتته من ليالي طفولته، عندما كان يستيقظ فجأة دون سبب، وينادي: أمّه، أمّه.. وهي تعجن في صمت الليل، وصوت العجين الطري يصطفق. وكانت تقوم تغطي القصعة بالملاءات النظيفة، والبطاطين، ليتخمر حتى الصباح. وتأتي إليه، تسقيه، وتلف حوله الغطاء، وهو يرى في نور حلم مهتز وجهها الأسمر الساكن الصبور.

عيناها شاخصتان إليه، ورأسها على البطانية، وشعرها قد تشعثت منه خصلة سقطت على الحصيرة الصفراء، منابت الشعر مبلولة على جبينها المدور، والجرح يجري على خدها بأطرافه الرفيعة الكثيرة، ووجهها ما زال أزرق متورماً مرضوضاً، وشرايين حمراء مشرجة قد نزت على صفحة الجلد المغسولة.

العذراء وقد سقطت. أين كان ابنها؟

ـ قدر ومكتوب، ما باليد حيلة.

ـ كيف؟ كيف أمكن أن يحدث؟

ـ من يصدق؟

ـ كانت وحدها يا اختي. يا عيني.

ـ أمر الله ومشيئته.
ـ ما استطاعت أن تفعل شيئاً.
يا اختي.. يا ضناي.
ـ وماذا يجدي الكلام الآن؟ مشيئة الله.
ـ كيف جاءت هنا وحدها؟
ـ أختنا وحبيبتنا، كنا معها، قلبنا معها.
ـ كيف حدث إذن؟ كيف أمكن أن يحدث؟
ـ أجيّه.. أجيّه..!

وهو يحتضنها بقوة، بين ذراعيه، في شبق الحنان، ويدفع وجهها إلى صدره، يخفي جرحها. شفتاها تحت ذراعه، تتلمسان صدره بقبلات صغيرة سريعة، والنور الأزرق الباهر كأنه يصفّر في أذنيه.

كانت المرأة قد نادت عليها، في أول الليل، وكان صوتها شاباً، ومبحوحاً. واقتربت من الخص. كان جلباب المرأة يسقط على هيكلها الخاسف الضاوي، أسود يختلط بظلمة الغيط من ورائها، وفي يدها عود حطب. وكانت وراءها ثلاث عنزات تثغو، وترفع رأسها إلى الجبل. كانت تسحب طرف جلبابها على الرمل، فيترك خطاً عريضاً. وكان الجبل رمادياً، وأعواد الذرة صامتة، متزاحمة ومتلاصقة، شاخصة في نقش مشعث حجري، عليه رواسب من التراب.

ومدت المرأة إليها يدها، في حركة دعاء واسترحام.
ـ عطشانة يا ستي.

وعندما اقتربت منها، كان وجهها ناحلاً، تحت العصابة العريضة الداكنة الحمرة التي تدور بجبهتها، وكانت شفتاها ملحيتين موشومتين بالأخضر، والحلقة الصفراء الكبيرة معلقة بأنفها. وكانت وسوسة الحلي الصفيح على صدرها، في الخلاء، مكتومة تحت الطرحة الثقيلة.

ـ عطشانة يا ستي، اسقيني لله.

بصوت لان له قلبها فجأة.

كيف نسيت؟ كيف تركتها تقترب؟ كانت الإمارات كلها هناك، وكم من مرة سمعت الحكايات، في كل القيعان والبيوت؟

كان في عينيها تضرع القطة، وفي مشيتها المتمهلة على الرمل إنسياب ناعم، وكان كل شيء ساكنا، لكنها تحس مع ذلك نبض الترقب حولها، ولهفة الترصد ولا تملك أن تغير شيئاً.

عادت إلى الداخل، ورفعت جالوص الطين الذي يغطي البلاص، وغمست الكوز في مرآة الماء المصقولة. كان في بقبقة الماء وهو يلين، ويتكسر ويملأ الكوز، ما يريح الصدر، ويجعلها كأنها تبتسم، مسحورة. وأخرجت الكوز مائلاً من الفوهة المدورة، وهو يشر بالماء البارد، واستدارت لتسقي المرأة.

احتضنتها النداهة، فجأة، وأحاطت بها، وسقط الكوز يرتطم بالأرض الطينية الصلبة، وينسكب على الحصير، لا يهتم به أحد، ووجدت نفسها في قبضة عناق خانق، رائحة الجلباب

الأسـود المترب تكتم نفسهـا، وهيكل المـرأة الجـاف يضغط عـلى جسمها، والحلي الصفيـح مغروزة في صـدرها، تؤلمهـا. واندلعت النار في وجهها. كانت المرأة تقبلهـا بشفتين من الشـوك، قبلات حادة لاسعة. ثم انتزعت النسيج من على صدرها ومالت تقبلهـا في خشخشـة الثيـاب السـوداء الثقيلة التي التفّتْ بهـا من كـل جـانب، قبلات كـاوية متـلاحقة. وقـد انبثقت نافـورة من الألم تتفجـر على ثـديها، وتـترك آثاراً رفيعـة ثاقبـة تنشعب كـالـبرق. وفتحت فمها تصرخ، فاغرة. هل صدر عنها صوت؟ هل حدث شيء؟ كان كل شيء حولها مقفراً، موحشاً، وليس هناك غيرها. وقد سقطت على الحصير. كانت تسمع الرجال يتنـادون ويجرون من بعيـد. قـادمـين إليهـا بنجـدة فـات أوانها، وكـانت النسـاء تصرخ. لم تكن هناك أعرابية، ولا معيز، لا شيء، إلا عـارها، جراح كأغصان النباتات الشوكية التي تنبث بين أحراش الحَلْفاء، وعلى حواف الترع المشققة من الجفـاف. حزمـة كاويـة بها عقـد والتواءات، مدببـة الأطراف، متقـاطعة ومتـداخلة على صـدرها وخدها.

وهو يغطيهـا بجسمه، كأنه يحميها من عريها، وعارها. يتلقى عنها، بعظامه وبعضلاته الموجعة، ثقل النور، في سجن الجدران اللامعة، ويدرأ عنها غيبوبة. يترك لها صدره تغمض عليه عينيها الجريحتين، وتلصق به خدها المحفور، وصدرها المنتهك. يدخل معها في منطقة حميمة خـاصة بهـما معاً، مغـارة تتقطر فيهـا أشعة خافتة، في قلب صخر من النور الرازح.

قديستي المستباحة. كيف امتُهِنتِ؟ كيف امتُهِنّا؟

كان يقظاً في ظلام الغرفة والنور ينضح على خشب النافذة، وهي تنام إلى جانبه، وجهها فيه سلام، وفمها مفتوح في حلم منعزل لا صلة له به.

وكانت أطرافه كلها متوترة في قلق متوفز كهربي، ترتعش له الأعصاب، دون أن يملك أن يردها. تفجر العويل يملأ سماء البلدة عليه، في صراخ ملحاح ممتلىء الأحشاء بالخوف، تتردد له أصداء ثقيلة، بِرَك من الصوت، معدنية، تنداح من جوف جرس ضخم، وتتسع على صفحة الليل، تحمل تهديداً يحيط بكل شيء. وصمتت البلدة كلها، حبست أنفاسها، وسمع وشوشة النخيل في حوش الكنيسة، تحت.

وتقلبت أجيّة وتمتمت في نومها:

ـ من مات؟

وفي عتمة الغرفة رأى على السقف الأبيض صرصاراً داكن اللون، تتلاحق أرجله الرفيعة القوية، وهو يسير، في عمى، إلى وجهة مقصودة.

وانطلقت صفارة القطار من المحطة، متصلة، متطاولة، تجلجل في نفس واحد لا ينتهي، تبشر بالخلاص، والعجلات تقرقع منطلقة إلى بعيد، فوق الجسر، حتى تقلَّبَ الرعد الحديدي الليلي وانتهى إلى مطر خافت يتقاطر في فراغ الحقول.

وعاد الصمت موحشاً، يملأ السماء، تنفتح له في النفس فجوة

شاسعة بلا قرار. وهو وحده، بإزاء الصمت، يحس صَهْد الحرارة في وجهه، جسمه ينتفض بالعرق، وأطرافه ترتجف.

يا حبي، كيف امتهنوك؟ كيف امتُهِنتِ؟ كيف سقطت؟

أبكي، كالطفل.

كيف أبرأ؟ وتبرأين؟ بكاء السقوط يا حبي، والامتهان. كيف تجف الدموع؟

وفي الغد لم يكن يجرؤ على أن ينظر إلى عيون الرجال. سقطت، لكنها طاهرة. مغتصبة، بل داعرة. شهيدة، وضحية.

ـ أجيّة.. أجيّة..

كانت عيون الرجال متباعدة، لا تبوح بشيء. كأنهم يخجلون مما سوف يرون فيها، وكان صوته هادئاً، محبوساً. كان الرجال قد انطوى كل إلى وحدة داخلية. عزفت النفوس عن الالتقاء.

منذ متى جاء هذا البرد؟ وتفككت الظلمة؟ كان الرجال قد ناموا على الحصير، وبنادقهم إلى جوارهم على الأرض. التفوا بالجلاليب والشيلان والبطاطين. في الخص الطيني الضيق كثافة النوم، وأصوات الأنفاس الثقيلة المكتومة، لم يطلقها النوم من الحبس.

وعندما مد أطرافه أحس بالحياة تجري من جديد.

من يصدق أنه نام أيضاً، واستراح.

وعندما خرج، وتركهم نائمين، تأنى يودعهم في حنان لا ريّ له، كانت حقول الذرة في النور الأول للنهار، مبلولة من الندى،

ونـواصيها مثقلة محنيـة بالمـاء، لا تكاد تهـتز في رعشـة الـبرد التي سرعان ما انجابت. كان يحس الرمل يتصلب تحت قدميه ويجف من دكنة الظل المخضلة. تطايرت شبـورة الفجر سريعـاً، لم تبق منها إلا نفثات خفيفة بيضاء تتلوى وتذوب حول عيدان الذرة.

كان ذهنه خاوياً، صافياً، وقدماه تسيران به، وحـدهما، بـين الحصى والحجر، إلى طريق الجبل.

والسماء مشدودة، سخنة، والشمس قاسية في عينيه.

وتحت أظافره حبات رمل دقيق مغروز. وهو يضع وجهه عـلى خدها، يحس شقوقه الجافة، ونضرته، وقسوته.

أنت تقتلينني.

البرج القديم

وهو ينحني بوجهه على المدفأة، يرعى نارهـا، هبات الـدخان الخفيفة ترتفـع إليه، تصـدم عينيه فجـأة، وجفناه يضيقـان، ولا يعـود أمامـه إلا شق تلعب ألسنة النـيران الصغيرة فيـه، تتولـد، وتختفي. ويحس الـدموع تتقـطر في ركني عينيه. ثم يـطير الهـواء بالدخان بعيداً عنه، إلى ناحية الباب، ولا تبقى إلا رائحـة الجاز الحـريف على قـطع الخشب التي غطاهـا تراب الاحـتراق الرقيق وانهارت أطـرافهـا وتفحمت في ألياف طـوليـة هشـة مـا زالت متماسكـة بـين قـطع الفحم المبلولـة، رطيبـة الـسـواد، معـدنيـة اللمعان، مرصوصة، ثمينة على الـتراب الضارب إلى البيـاض، الشديد النعومة، تتطاير منـه على وجهـه هبوات تتشتت للفـور، كلما نفخ في النار.

كان جسم المدفأة الفخار، المدور، المحبب بين يديه، ما يزال بارداً.

مسـح بظهـر يده الهبـاء النـاعم المـاسـخ الـطعم الـذي علق بشفتيه، ودعك يديه إحـداهما بـالأخرى، وهـو يرجف رجفـات سريعة خاطفة، ونظر إلى الباب الخشبي القديم، مفتوحاً، مائلاً

في عتمة المساء على العتبة الداكنة ببقع مياه يتشربها التراب الشبعان. نشق بعمق، يملأ صدره الذي أوشك أن ينضب. وعبّ من هواء أمشير اللاذع البرد، وهو يأتيه فتضطرب نيران المدفأة، وتَمُوج أطراف شجرة الجميز العجوز على الباب، وترتطم أغصانها المثقلة. نفثات الدخان الكثيف تتلاطم تحت فمه ـ نبيذا مرا ثقيل المذاق ـ وتكاد تخنق اندفاعات النار التي تنبثق مع ذلك فجأة، هنا وهناك، رشيقة وحرة، من حيث لا يتوقع انفلاتها، من تحت مخابىء الفحم والخشب.

أمشير هذه السنة جاء مبكراً، بزعابيبه وترابه وهوائه القارص. رفع رأسه إلى سقف الحوش المفتوح على السماء. على الله تكون الجاموسة دفيانة في الزريبة. أمر عليها لما تمسك النار، وتحمى.

سماء الليل جدار من الرصاص مقلوب، وفي فتحاته الزرقاء الباهتة بين سواد السحاب، أجنحة الحدادي التي لم تأو بعد إلى أكنانها، امتدادات لا حراك بها، مبسوطة الريش، منحوتة، فرعونية، بدائية، ساذجة ولكنها ما زالت مهدِّدة، لها سطوة.

في ركبتيه وسمانتي ساقيه خدر طفيف من جلسته، مقعياً غير مستقر على الأرض، أمام المدفأة وأنفاسه متداركة لكنه وحده مع متعة خفيفة رقيقة، في العتمة الشاتية، واضطراب ريح أول المساء حواليه. يحس عظام صدره على رقتها غضة فتية تقبل التحدي، وجسمه الطويل المنحني، على ما يثقله من تعب طول النهار، لدناً مرناً تحت الجلابية الكستور الثقيلة، والبرد يلسع ما

بين ساقيه فجأة ويهرب سريعاً. وقدماه تحتكان بالأرض يحس التراب الخفيف على جانبيهما، وأصابعه تغوص في جلد الشبشب العتيق النحيل.

من ورائه صرخة مفاجئة من الفراخ، نقيقاً ثاقباً قصيراً مفزعاً، وفي لفتته للوراء صمتت الفراخ مرة واحدة، كما صرخت. لماذا اهتاجت هذه الفراخ فجأة؟ قلة عقل؟ شيء دخل الزريبة من بين أيدينا؟ لا يا شيخ.. والله ممكن، يا داهية لا تكون العرسة نطت من ع الحيط، أو يمكن فار من الفيران الجبلي الهربانة من الكوم الغربي، تعملها وحياة العدرا. تنسرق في المسا. من غير حس، وتعقر الكتاكيت، لا يا شيخ فال الله ولا فالك. قلة عقل منك أنت.. كان زمان الكفر كله صحي من زياط الفراخ والوز، والجاموسة نعّرت وحسها ملا البلد.

خيط من النور الأصفر المحمر يطعن العتمة طعنة مهتزة ولكن مثابرة متصلة، من باب المندرة الموارب، ثم يسقط على أرض المدخل، ويرتفع على جدار الطوب الأسود اليابس، وينحرف، ويتعرج، وينشعب عن زوايا حادة رخيصة متشابكة على عروق الخشب، المتفرعة بأعواد مشعثة عظمية الجفاف، على أشلاء أغصان شجرة الجميز المقطوعة للوقيد، ميتة، متساقطة الورق تخشخش في الهواء البارد، وعلى أعمدة صغيرة مهددة بالسقوط من أقراص الجلة، تتخايل كلها في شبه العتمة، تحت سماء تسطع زرقتها الأخيرة، خالية الآن، بين أكوام السحاب التي

تتقلب وتنساب، بسرعة وصمت، على السطوح الواطئة الناتئة الأطراف.

ثم لم يعد هنا شيء إلا هذا الجهد الممتع المستغرق، شفتاه وفمه هما كل جسمه، وهو ينفخ بانتظام وحذق، ويداري بيديه على النار، من هنا وهناك، كأنها عشيقته، في خفاء، يحميها من هبات ريح أمشير المفاجئة، وفحماتها تحمر، ثم تبيضُّ، في اتقاد ساطع، والخشب يقرقع في احتراق بهيج، ورائحة الجاز قد اختفت أو كادت وحلت محلها رائحة سخونة الرماد النظيف.

كان ينحدر الآن من ذروة اكتمالٍ ما، وتحققٍ فات وأعقبه تهدل وراحة واسترخاء متعب فيه بقية من توتر قليل، والله لا راحة في ليل أو نهار، نشقى طول النهار في دفاتر الجمعية، وإيصالات الفلاحين وحسابات التقاوي ورصيد السلفة على المحصول وعهدة السولار والجرارات وأقساط الإصلاح وأوراق المهندس الزراعي، والميكانيكية، وخصومات العجز والكيماوي والمبيدات، وفوق هذا كله وقبل هذا كله طلبات البهوات من العيلة الكبيرة، كله على دماغي أنا، ومن ورائنا وأمامنا وحوالينا الباشكاتب ورئيس الجمعية. أنا عارف، عارف أن الدفاتر والأوراق فيها لعب، لكن أولاد الكلب لا يتركون الدفاتر على بعض معي أبداً، دائماً معهم بحجة المراجعة وطلبات مصر، وتقفل عليها الخزانة، أنت عليك التقييد والجمع والطرح والنقل من إيصالات وفواتير ولا شيء آخر. فاهم؟ صحيح، ليس هناك ورقة بإمضائي، هو أنا مجنون؟ ليس هذا شغلي ولا مسؤوليتي

وأنا مالي يا عم. آه ياني. صرخة ثاقبة، لا عاقلة، قصيرة، نهائية. أنة من بعيد، خدشت طرف وعيه، لحظة، وانقطعت. حمامة في البرج سقطت عليها حدأة. فرخة انقضت عليها عرسة. طفلة، فوق، أمام قسوة العالم الجديد، بقبضته الخشنة. صرخت صرختها قبل أن تموت. لم يسعفها شيء. لم ينجدها أحد. صرخت، أطلقت في ليل اللامبالاة آخر صيحة حياتها. حياتها. حرام، حرام وحياة العدرا، يقولون الباشكاتب قنى عشرين فداناً، في بحري بعد البحر، الجربوع الحرامي، أبو إعدادية، من أين جاءت الفدادين العشرون؟ من السفّ والنهب، من الضحك على دقن الإصلاح، من دم الفلاحين، ولاد الكلب، هم أيضاً ساكتين، مغفلين، قال كتبوا عرايض قال، ما الذي يسكتهم؟ قال كذب مسوى أحسن من صدق منعكش، حسابات سليمة مية في المية، وأنا أيضاً حمار، لا أعرف أبداً أن أضع يدي على شيء. عصابة الله يخرب بيوتهم.. ويمكن غير صحيح؟ بعض الظن إثم كما يقول إخواننا، ولكن أهناك دخان من غير نار؟ حتى في الليل لا يرحمنا الهَمّ. الله يسامحك يا ابا إرساني، أما كان يخرج من يدك أن توفر لنفسك، من أيام العز المتلتل، ثلاثة أربعة فدن، أو خمسة، بدل القيراطين العمى نطفح الكوتة لما نتحصل على إيجارها، وتترك لي كبشة أولاد وبنات أخوات أو كّلهم وأعلّمهم وأكسيهم، يا خي كفاية غلب المدارس، وطلبات المدارس، وسنتين ثلاثة وأحمل هم شوار البنات. وأنت يابا إرساني: ربع الكونياك كل ليلتين

تلاتة، والمزة، البيض أبو ليمون، والكبدة وجوز الحمام، وعلبة البلمونت صحيحة.

لم يسمع نفسه وهو يضحك ضحكة خافتة مستمتعة، في غير سخط، بل بشيء من الإعجاب: هذه العظمة الناشفة القديمة، لا تنهد أبداً. أوشك على الثمانين، بل لا بد تجاوزها، وما زال أيضاً عفياً لا يدير رأسه ربع الكونياك ولو شربه وحده، وذهنه أصفى من قلم حسابات بكله وكليله، وحياة ستنا العدرا، يغلب بلد آبا إرساني، وعينه كالصقر، لا يفلت منها شيء.

همَّ واقفاً فجأة، وقد صمت ذهنه مرة واحدة. لكأنه نسي، أو لعله لم يوجد أبداً ـ همّ ولادة البنت، ومصاريفها، وخوف التهديد والقلق الذي يجفف قلبه. لكأنه عاد بريئاً، حراً، نقياً. خمس سنوات إلى الوراء، هل هي خمسة؟ أبداً، لن يغتسل أبداً من هذا التوجس، لن يخلص أبداً من هذه المواجهة مع زحمة المخاوف وضرورة الهجوم معاً. كأنه هناك وراء خمس سنين، وهو مع ذلك هنا، والآن، قبل أن يتزوج حنونة، وتلد، ثلاث مرات، بنت كل مرة. وتموت البنت. كل مرة، قبل الأسبوع. كأن يداً مسحت من ذهنه هذه السنوات كلها، بل سنوات العمر كله، كأنه لم تكن هناك سنوات مرت أو تمر، ثم انفكت حبسة ذهنه، وعادت الأصوات تملأه من جديد. وهز رأسه في دهشةٍ من نفسه نسيها للفور، وهو ينظر إلى الحائط المسدود في الدور الثاني، ويرتقي درجات السلم الترابية المتحدرة إلى الغرفة العلوية الكبيرة أمام البسطة على سقف الزريبة، مقفلة اتقاء

للبرد، شباكها المطل على الزقاق محكم السد بالخرق المحشورة بين الحائط وضلفة الخشب المتأرجحة أبداً، المسنودة بالعلب الصفيح والكراكيب والهدوم والحقاق، وزجاجة الزيت الراكد المدهنة، اللزجة الفوهة، برواسبه البيضاء الثقيلة في قعر الزجاجة تملأها حنونة على تفلها ولا تفرغها أبداً، كأنها تخشى، لو نظفتها، نضوبَ البركة. وجنبها زجاجات الخل والسبرتو معاً، كيف تميز بينها؟ كل منها فوهتها سوداء محشوة بقطعة ملفوفة مدكوكة من ورق الجرنال، الداكن الاحمرار. وقطعة المرآة المكسورة والفلاية الخشب وأنصاف الأمشاط البلاستيك والقمع الصفيح الصدىء. وقلبه يبتلّ من جديد من الشوق للدفء الذي طالما عرفه في هذه الغرفة، وتغرق أرضه أمواج التوق لجنون الانطلاق الحسي العارم، وأمواج الخوف أيضاً من مضض القلق والانتظار والانطفاء، وطعم التراب الكاسد الثقيل، والعجز أمام جفاف الحياة الصغيرة التي تذبل وتركد وتلتوي هامدة في الأقمطة واللفائف، كل مرة، يعود إليها يحملها، على ذراعيه، إلى تحت، إلى النعش الخشبي الصغير الأسود بصلبانه البيضاء.. يا رب.. يا رب.. ارحمها هذه المرة يا رب.. ارحمنا، كيريا لايسون.. يا رب ارحم.. ارحمنا.. ارحمنا.. دستة شمع نذر عليّ يا ستنا العدرا وآدي ندرك يا ست.. يا أم النور..

ـ احم.. يا ساتر.. يا ساتر.

ودقات عصا ثقيلة على تراب الأرض، من الخارج، تقترب

مع الصوت الأجش المجروح.

وفي نفس الوقت هرولة نرجس الصغيرة على السلالم، والباب ينفتح ونور مصباح الجاز «الشيخ علي»، يثب، ويتطاول، وينخسف فجأة يكاد ينطفيء في يدها، وأخته تهتف به هتفات خافتة ملهوفة، قدماها الحافيتان، السوداوان بعظامهما الرقيقة الصغيرة، على التراب.

ـ آبا فانوس.. المعلم جورجي.. المعلم جورجي جاي.

وفي نظرة حنو تعرفه البنت وتألفه، وتبتسم له عيناها الضيقتان بمكر، وفي صوته قشرة مكسورة من قسوة خادعة:

ـ طب يا بت يا مقصوفة الرقبة، مالك اتسَرَعْتِ ليه؟ إدخلي قولي لبنت خالتك حنونة تحضّر العشا. وشوفي آبا إرساني ينزل المندرة يا الله يا بت ياللا اعملي لك همة، وروحي اندهي البت المديوبة خضرة شو فيها متّاوية في أني داهية، همّي يا بت جاكي ديب..

مقصوفة الرقبة فرحانة لأنها تعرف أن الليلة التي يجيء فيها المعلم جورجي سينالها نصيب من الوَفَر، وهو يأتي إليها في جيبه بكرملة من عند الخواجا شنوده البقال، يدسها في يدها من وراء ظهرنا، وما زالت البنت تتوثب بالأفراح واللهفات الطفلية، في الابتدائي ما زالت، أما أخواتها الثلاث فقد انتهت طفولتهن، وهن لا يختلفن عن الفلاحين في شيء. وطافت بذهنه آمال قديمة مألوفة أن يصبحن كقريباتهن في دمنهور، أو إسكندرية،

ومـا زال يـراهنّ في مستقبـل غـامض: في بيت بـالمـاء والنــور، زوجات موظفين، رشيقات نظيفات. أخوتهن تخرجوا من الجامعـة دكاترة ومهندسين ومدرسين، متى يا رب أرتاح من همومهم جميعاً وأفـرغ لحالي ونفسي، لا أعـول همّ المدارس والأزواج، والأولاد الذين يخرجـون كل يـوم على وش الصبـح يسيرون للمـدرسة في الخطاطبة على أقدامهم، توفيراً للاشتراك، ويعـودون كل عصر، عشرة كيلومتر كل يـوم صباح مسـاء، ومع ذلـك ربنا يحـرسهم، ينجحون بمجاميع.

كـانت خضرة تنحني، بجسمهـا الفــارع القـوي اللدن، ثم ترتفع قامتها الطويلة من تحت الجلابية السوداء السـابغة المـتربة، مشقوقة على الصدر، ويبدو من الشق طرف جلابيتها التحتانية، المغسولة الباهتة الـزرقة، ولحم صـدرها الأسمـر المتماسـك. وعلى رأسها خرقة القماش المبططة، على الطرحة، ترتفع فوقها الصينية النحاس الواسعـة، وعليها مـا فضل من العشـاء. تهتز الأطبـاق والأكـواب وتنزلق قليـلاً على الصينيـة ولكنها لا تـرتـطم بعضهـا بـالبعض، بـل تثبت في تـوازن. والـظهـر النسـائي الشـامـخ، منسرح، متـين الأسـار، من تحت الجـلابيـة التي تحف أطـرافهـا بالتراب من على القدمين الكبيرتـين الحافيتـين. وانكشف خشب الطبلية الصغيرة مسوداً رقيقاً، هزيلاً، عظم قديم في تُرْبـة، بعد أن أزيح عنها الغطاء المعدني الباذخ الصفرة بنحاسه العريق وبقع السمن اللامعة.

ورجعت خضرة بالصابون أبو ريحـة، والطشت عليـه الإبريق.

كانت يداه تنعمان برغوة الصابونة النافذة العطرة، وخبط الماء الأسمر ينسرب رقيقاً بارداً، جاءت به البنت، بلا شك من الأنجر الكبير تحت الزير، يُثْلِج حموةً في يديه ودمائه، ليست من هَبْو الكونياك ولا من حمو ذكر البط، بل هي وهج داخلي يشعل أحشاءه، ويحس معه ذكورته متطلبة، آمرة، متوترة، والبنت تنحني. وصدرها الوثير يتدحرج تحت الجلابية السوداء، ويندفق نهداها من فوق طرف القميص الناصل، ويملآن الشق الطولي الرفيع، في وفرة، وضغط، ويتخذان مرفأ خاصاً واستدارة خاصة، إذ يتضامّان معاً، تحت النور المحمّر، وهي تنحني تصب له الماء، وفي رائحتها يختلط نفح جسدها الحميم بطعم الحليب الطازج، ورائحة الجاموسة ودخان الجلة الدافئة الجديدة، والصابون، والزفر السمين المطبوخ، في بخاره العبق، كلها نعومة، ومتانة، راسخة أيضاً، كل شيء فيها مدور، محكم اللدونة، ليس فيها ما يكشط الحس أو يهبش بالمخلب والمنقار الحاد، ولا قسوة العينين المفتوحتين الصاحيتين أبداً.

وعندما ذهبت للمرة الأخيرة، وعيناه تتبعان موسيقى الردفين بإيقاعهما الغني، البطيء، المليء، عايز حاجة يا معلم؟ طب تصبحوا على خير، بجي، فُتكّوا بعافية.. أحس جسمه يتمطى، بالرغم منه، مهدوداً وملآن، ما زال فيه توتر قليل يخبو، يحثُّ على الراحة لا على التوفز بالقلق والهجوم، وفي رأسه دوار الكونياك الخفيف، وما زال في زجاجة النُصّ بقية، ولكن عينيه صافيتان، مجلوتان، كل شيء يبدو له محدداً قاطعاً، في

ضوء أسطع قليلاً من المعتاد، أوضح قليلاً من المعتاد، كأنه ينظر من خلال عدسة مقربة جديدة: وجه المعلم جورجي المكتنز المترهل، بجلده المزرق، المنقور بآثار جدري قديم، وعينيه الجاحظتين المبقورتين، من غير نظارة، نيئتين، تدور المقلتان من غير رؤية، وتحسّ أنهما تتبعانك مع ذلك ترصدان كل حركة في داخل نفسك أيضاً، خففت الألفة القديمة بشاعة شكلها، لا يضع عليهما نظارة سوداء، ولا يريد، لكنهما الليلة تبدوان له كأمهما جديدتان عليه، في اقتحامهما وفجورهما، في بذاءة سافرة، وغريب منه أن يقبلها ـ هذه البذاءة ـ ويسلم بها، مع ذلك، هو والقرية كلها. لا صلة لذلك بأنه عريف الكنيسة وكبير الشماسين فيها ـ وحافظٌ لا تخونه الذاكرة أبداً للخولاجي كله ولألف ترنيمة بالقبطية والعربية معاً ـ وأنه هناك حيث كل شيء كبير وصغير، في الولادة والتنصير والقربان وجبانيوت الخطوبة وإكليل الزفاف وقداس الجناز، في رش الماء المقدس في البيت بعد الموت إراحةً للروح من عناء الانفصال، وعند تفريق الملبّسْ، وشرب المغات، في تسجيل عقود الإيجارات والبيوعات، وبعد جمع القطن، وفي كيل القمح، عند ذبح الوزة وعشار الجاموسة، في لعب الطاولة وعشرة البصرة، وعندما يأتي حكيم المركز أو ضابط النقطة، على السواء. لا. أبداً. هذه البذاءة العارية في عيني الرجل الصخريّتين المسدودتين وفي تلمظ شفتيه الجسيمتين الدهنيتين، في تعليقاته الصريحة المفتوحة ونكاته القبيحة المباشرة اللفظ، إنما هي شيء آخر يحس الجميع براحةٍ إليه وبمتعة خاصة

فيه، كأنها محرَّمة قليلاً ولكنها مسموح بها لأنها أساسية، متعة تفاجىء يديك وصدرك أحياناً وأنت تمسك عجل الجاموس اللباني الغض لتذبحه في العيد، أو عندما تقبض على استدارة امرأتك المليئة المقببة كالعجين الدفىء الخمران، تحت غطائه الثقيل، وتغوص في الليل.

كانت النظرة يحسها تثبته في مكانه، وكأنما تثقبه. منذ بضع لحظات بالفعل، أحس العينين الضيقتين العجوزين، يقظتين رغم العشاء الثقيل والكونياك كأنهما متربصتان، وجارحتان أيضاً، من تحت غطاء الحاجبين بشعرهما الأشيب المتنفش الحاد الشوك، وهو يخرج السيجارة من علبة البلمونت، بيديه السمراوين الشفافتين، عظام الأصابع الطويلة لا تهتز، ويمدها له، بصمت وشيء من تقطيب خفيف يعقد الحاجبين الكثين البيضاوين، كأنه يسمح له باقتراف الذنب أمامه، أي ذنب، كل ذنب، الآن فقط، فما كان الولد، مهما كبر، ليجرؤ أن يشعل سيجارة أو حتى يستأذن فيها، ولو بعد العشاء والشرب، إلا أن يأذن له آبا إرساني هذا الإذن غير المباشر، ولو اضطره الأمر، وحَبَك الكيف، تعلل بأية حجة، وخرج يشرب الدخان بعيداً عن نظرة أبيه الحادة.

انعقد الدخان حول مصباح الغاز النيكل الكبير الدائري المبطن، بزجاجته الرائقة الطويلة المستدقة العنق في طول، بعد انفلاتها من قبة الضوء المتفخة حول شعلتها الساطعة. واستند الرجال الثلاثة إلى المخدات، وهناك من فوق، جلبة البنات

والأولاد، ومعهم خضرة بلا شك، في معـركة العشـاء البهيجة. وأخرج الشيخ أقراص الدومينـو من تحت الشلتة، تحت كـوعه. كـانت المدفـأة الفخار في الـركن تتـوقـد بصمت ووهـج، تبعث حرارة تشبع عـظام الرجـال في المندرة المنـيرة المنعزلـة المقفلة على نفـسها، بطن مركب مضيئة في موج النيل الليلي.

ـ والله الدفا عفا يا ولاد.

ـ اي والله.. هابياك..

ـ دوش.. سمعت يـا سيـدي جـامـوسـة النـاظـر عشرت النهارده..

ـ إيوه يا معلم.. وبيقولوا بنته كمان.. اتنين وستة..

ـ تلاتة واحد.. يا راجل اتقي الله.. وبعد هالك بجي..

ـ تاخذ كاس يا آبا إرساني.. كاس كمان يا معلم جورجي..

ألقى عليه أبوه نظرة أخرى خاطفة، ضربـة مخلب من صقر، جاف، وهز رأسه بالإيجاب. وعلى الـطرف الآخر من الشلتـة، كـانت الأصابـع الغليظة المـدربة، معـوجة قليـلاً في اكتـظاظهـا باللحم، تتحسس أقراص الدومينو بسرعة، بين الإبهام والسبابة. وتضعها في مكانها، والذهن الذي ينز بالدهن والذكاء معاً يلتقط الـرقم، ويحسبه، ثم تسحب الأصـابع القـرص التالي، في نفس اللحظة تقريبـاً، وتسنده في الصف الممتـد على الشلتـة المفروشـة فوق الحصيرة. والصف يستطيل بسرعة، ويعوجّ، ويصنـع زوايا حادة، والحسبة تكبر وتصل إلى نهايتها. وهو يرقب اللعبة وينشق دخـانـه يمـلأ بـه صـدره المـزدحم. كـأس أخـرى، وتغيم عينـاه

قليلاً، وهذا الوضوح القاطع في الأشياء لم يعد يؤذيهما. كأس أخرى، ويتمهل الإيقاع الوثير الممتلىء حتى لا تكاد تهتز موسيقى النهدين والردفين الناعمة، ويتعثر ذهنه قليلاً، ويغوص، من غير دفع خارجي، في ردغة مبلولة طيعة. يتوقف جريه في توتر السهم المنطلق المشدود، دون أن يصيب هدفا. آبا إرساني يضع خاتمة حساب اللعبة، وقد كسبها مرة أخرى، فمهما كانت براعة المعلم جورجي وذكاء أصابعه ودربته المشهود بها في كل بيت، دائماً يكسبه آبا إرساني، ودائماً يعابثه في آخر اللعبة هو انت عايز تكسب كل حاجة يا جورجي يا خويا، فيضحك العريف ضحكته الجشاء، الغليظة، ويلتقط بين شفتيه السوداوين اللامعتين ولسانه حركةَ تلمُّظ كأنما هناك لذاذة متعات أخرى ومكاسب لا علاقة لها بالحساب، وما يزال يضحك ويهتز كرشه المدور في القفطان الحرير من تحت البالطو الصوف، اللهم اجعله خير يا ولاد، الله يجازيك يا آبا إرساني، خير يا سيدي، وانت يا سي فانوس اللي واخد عقلك.. خد يا سيدي، جبت لك ميه مصلية من عند أبونا، بركة من الكنيسة، خد يا خوي كل شيء بإرادته، عقبال ما نأكل ملبس الفرح.. في حياتك إن شاء الله يا معلم جورجي، خد يا خوي.. وفي عزك وعز آبا ارساني يا واد، إيه، حناخد زماننا وزمان غيرنا يا جورجي بس ربنا يخليهم، ويخلي لها أبوها، والله زمان يا ولاد، في صحتكم.. تتربى في عزك يا سي فانوس، اللي جاب لك يخليلك.. في حياتك يا آبا ارساني.

والأصابع الطويلة العجوز تقبض على الكأس المشعشع بالكونياك الأصهب، بلا اهتزاز، أظافرها القوية الصلبة بيضاء مصفرة من الدخان. عاج قديم في النور الأحمر.

ماذا نسميها؟ يا رب احفظها يا رب. ابق على حياتها. هذه المرة. كم مرة تولد وتموت؟ أوشك الأسبوع أن ينقضي. هل هو غداً أو بعد الغد سبوعها؟ هل سيكون هناك سبوع، ودقات الهون، ورش الملح، وهز الغربال بالحمص وحب العزيز. والقلة الحمراء بالشموع؟ أخذ السطوع الوضيء في ذهنه يخبو، وتنوشه غاشية غيابات تمضي سراعاً، كأنه ينسى ثم يعود يتذكر. مختارة، صفية، وهيبة، جسم واحد صغير، مضغة رقيقة تصرخ، لما تكد تتحرك حتى تسقط ضاوية جافة، مكسورة. حِمْل ما أرقّه وما أهون ثقله، يحمله، كل مرة، كل مرة يا رب، على ذراعيه، إلى تحت. ويحمل الإثم والخطية، معه كل مرة. لم يغمر الجسم الصغير الهش أبداً في قلاية التنصير المملوءة بالماء المقدس، لم يصلّ عليه أبونا أبداً في الجبانة، على الطرف الغربي، هناك في الآخِر بعيداً عن بقية القبور، ليس له الحق، هذا الجسم الصغير المنبوذ الموؤود المنتهَك. ليس له الحق في شيء، الخلاص بعيد، في اليوم الأخير، بنته الواحدة الكثيرة لا مكان لها في الأرض المقدسة. ثلاثة ملائكة صغار، بجانب المسيح، ينتظرون أبداً الدهر، أزماناً لا نهاية لها، طوال قيام ملكوت الأرض، حتى تأتي الدينونة، ويأتيهم المسيح في اليوم الأخير. يحملهنّ بين ذراعيه، مسدود العينين، ويقبلهن بشفتيه

السـوداوين، يخلصهن للمرة الأخـيرة بجسمه المصلوب المـطعون القائم من بين الأمـوات، ويقول لهن ادخلن معي، إلى ملكـوت أبي، إلى بطن مركب مضيئة سابحة في السماء إلى أبد الآبـدين.

ولم يستطع يوم الأحد الماضي أن يوافق على أن ينصّر الصغيرة الجـديدة، ولا أن يعـطيها اسـماً، سوف يحتمـل ثقـل المخـاطـرة بالخطيـة مرة أخـرى، نعم. ورفض أن يأتي أبـونا ليصـلي ويرش كل شيء بالماء المقدس ليطرد الروح الشريـر من البيت، لو قبـل فإنما هـو بذلـك سوف يعـدها ـ هي أيضـاً ـ لمراسيم مـوتها، من جديد. لا. لا. تظل من غير تعميد. من غير اسـم، كأنه يخفيها عن بصرٍ مترصد يتلمس أين هي. حتى ينقضي الأسبـوع. كأنـه يخدع أحداً مـا عن حقه الصارم القاسي، ويختبىء بطفلتـه بعيداً عن هاتين العينين. كأنها لم تولد بعد، مغلقا عليهـا في لفائفهـا، في الغرفة. نعم.. ولكن معها أمها.. لا يستطيع أبداً أن يحسن إخفاءها عن كـل عين.. عن كـل خطر.. معهـا أمها.. معهـا أمها..

زجاجة الماء المصلى عليه، بين يديه، فيها تهديد ما. شفـافة، وثقيلة، ثقيلة لا تحتملهـا أصـابعـه. يكـاد يفلتهـا فتنكسر عـلى الأرض، ويتشبث بهـا مع ذلـك بخوف وأمـل. يا رب، اتـركها لنا، انسها يا رب، اتركها لنا، هذه المرة، يـا ستنا العـدرا.. يا أم الطفل، شفاعتك يا رحيمة.

ـ رحمة.. رحمة، نسميها رحمة، على اسمك يـا أم المراحم يـا عـدرا..

مكتومة، نـدت عن نور مضـطرب يبرق وينـطفىء في ذهنه، لكن عيني أبيه كانتا حجرين، صلبين، ثابتين عليه، لا تطرفان.

ـ امتَى تعـزمنا عـلى جوزين حمـام يـا سي فـانـوس؟ وَالاَّ بس الحمام غِيَّة يعني، واللا يعني الحمام غية؟

وابتسـم، على الرغم منـه، بينما كـان الوجـه الأسمر المجـدور اللحيم يتهـدل وينكسر مرة أخـرى في ضحكة السُكْـر المهـدودة المتماوجة. في الضحكة الحسـية الخشنة إيماء بذيء بسخونة اللحم وانـدلاع شهوة مكتـومـة وهشـاشـة العـظم الـرقيق يتهشم بـين الأسنان القوية، وطراوة الصدر الصغير مع كأس الكونياك.

ـ وَاللا الحمام غية..

وهو يسعل، ويكـرر نفسه، في غيـاب السُكْر، ويهـتز جسمه الضخم في آخر اندفاقات الضحكة المتحشرجة المكتظة، لا تكاد الكلمات تخرج من أحشاء الضحك الممتلئة.

ـ أبداً يا معلم جورجي، وحياتك دا الحمام حتى خايب السنة دي، ولسه ما عملش جوزين على بعض..

ـ الله يـا ابني مـا تشـوف الحكـايـة إيـه.. لازم فيـه عِـرسـه بتخطفولك.. والا البومـة اللي لابْـدة على راسِ الـبرج.. والله أنـا سامعهـا بوداني يـا آبا إرسـاني.. سامعهـا الليلة وأنـا جـاي حَدَاكو من قـدام الجنينة، وسـامعها ليلة الجمعـة اللي فـاتت على طول.

أي والله، يجب أن يصعد البرج يوماً، ويخلص من هـذا الهمّ

الآخـر. . حكايـة البـومـة هـذه، أو العـرسـة، أو الحـدادي أو الصقـور، ما من أحـد يدري. . تقتـل أفراخ الحـمام أولاً بأول، وعندما يـذهب يطل عليـه لا يجد إلا الـريش الصغير ملوثـاً بدم جاف قليل، والأصابع الصغيرة الملتوية في القدم المقطوعة ملقـاة بين لفائف ورق الجوافة الذابل.

كانت العينان الواسعتان المضيئتان تنتظرانـه، في عتمة الغـرفة العلوية. وهو يدخل، يحمل المدفأة ما زال يتقـد فيها الفحم بنـاره الحميمـة المكنونـة، عليه طبقـة رقيقة بيضـاء من الـرمـاد المشقق الناعم. وضع المدفأة، بحـرص، على الأرض، كـأن كل حـركة منه زلزلة في الغرفـة وفي جسمه كله، ولـزام عليه أن تكـون كل إشارة وكل إيماءة، وكل انحنـاءة، موزونـة محسوبـة، وإلا اختل تـوازن هش ما، وتقلبت أعـاصير ثقيلة مـتربصة ينبغي أن تـظل محتبسـة راكدة. لا، لم يشرب أكـثر ممـا ينبغي. وابتسـم، أو لعله شرب. ومـاذا يعني؟ عنـدمـا صَلَب عـودَه، صـدمتـه العينـان المـدورتان صـدمة أخـرى، من على السريـر بأعمـدته النحـاسية وملاءة التُل البيضاء التي تدور حوله، وتتدلى ممزقة هنا، متهـدلة هنـاك، وإن كانت ما زالت توحي له، بمجرد تهدلها الثابت دون اهتزاز، بعمق لياليـه التي لا غور لهـا، محتشدة بـالجوع والجنـون والمضض والحبوط وسورة الأيادي والأطراف وتلويـات حيوانـات الأجسام وصرخاتها وتحليقها مشرعة المخالب مفتوحة الأفواه.

في فتْـح الباب، اهـتز خشب الشبّاك وأخـذ يصـطدم، وهـو يرتج من عصف الهـواء، اصطدامـات سريعة متـلاحقة بـأركان

الحائط وبالأكوام الصغيرة التي تسنده، ونفذ منه فجأة تيار متقلب لافح البرد، فاستدار يحشر الباب في حائطه، فيحتك بالأرض التراب غير المستوية. وانقطع تيار الهواء، فكسل عن أن يذهب للشباك، كما كان في نيته، يعيد إحكام اغلاقه بالخرق ويدفعه بمشقة إلى مستقره من الحائط الطيني.

وما زالت العينان المدورتان المشعتان في عتمة الغرفة تحيطان به، فسيحتين، دافئتين، مياههما راكدة حوله، تحاصرانه. وخطا إلى السرير يسبح في عنصر العتمة يحمله متموجاً خفيفاً، صاعداً هابطاً في رفق، من غير جهد، ولكن في احتياط واتزان دقيق. وعندما وصل إلى مرساه غاص جسمه قليلاً تحت ثقله نفسه ثم هبّ هيناً، يجذبه بمجرد الاستسلام له، إلى أعلى. وألفت عيناه العتمة، وعظام الوجه الهشة الحادة، وفي وسطها بِرْكة العينين الصامتين، وشعرها المجعد غير المسرح، في خصل صلبة تقريبا. سقط جانب وجهه على المخدة، بطنها هش مشفوط، أضلاع صدرها تبدو ترائيها تحت الجلد الأسمر المشدود الغض، وفتحة القميص الرمادي الخشن واسعة، في طرفها تصلُّبٌ قليل حائل تلمسه العين، من بقع لبن جاف، وتحته وجه الصغيرة، في لفافتها، تمص حلمة الثدي بشرَهٍ مصمِّم غائب عن كل شيء آخر، واليدان الدقيقتان تتلمسان الثدي الصغير، تتكشفانه وتدعوانه وتتطلبان منه، والوجه المحتقن محبوس الدم، داكناً، لاهثاً، في كتمة الرضاع الدؤوب الذي لا يهن تصميمه وتلمسه. ارتعش قلبه لها، والشفتان شرْطتان ملتصقتان على

الكرة الصغيرة التي تنبض بالحياة، قابضتين، مدفونتين في اللحم المضغوط. الذراع العارية القوية تحيط بالصغيرة، عظمة طويلة ناعمة مكشوفة منفلتة، معقوفة حولها، تحملها على جناح ناحل محرود، أصابعها تلتف بالرأس الصغير، ثابتة الأظافر، حول عظام جمجمة لينة معوجة، تنبض، ناصلة الزغب.

قال لها تأخرنا هيا بنا فقالت نعم تأخرنا هيا بنا. ووقفت، ما زالت شاحبة قليلاً من أثر الولادة ولكن نشطة في الظلام وأحسها تعد نفسها للخروج. كان مستعداً. وكان ثم قلق ناهش أيضاً لا يكاد يجعله يطيق الانتظار لحظة. قالت له الليلة؟ قال نعم لم يعد إلا الليلة. قال الانتظار لن يؤخر ولن يقدم قال لها ليس أمامنا إلا الليلة قال سنخرج، سنخرج الآن. شوارع القرية مظلمة تسفعها ريح متلاطمة نفاذة البرد. وحدهما يحملهما إحساس بالفقدان، وضرورة الاستدراك. الآن. ليس معهما رحمة. ومع ذلك ففي حسه أن الصغيرة قريبة منهما، وأنهما إنما إليها يخرجان، وهي وحدها وِجْهتُهما، يعرفان أين هي، ويتفقان في معرفتهما، دون أن يقول أحدهما للآخر عن معرفته شيئاً. في نصف الليل خرجا إليها، يخوضان في قلب القرية وحواريها، تجابههما فجأة حيطانها المصمتة المسدودة، ويرقيان، بلا جهد، أكوام السباخ وينحدران في السكك الضيقة المتعرجة، أقدامهما مع ذلك لا تحس موطئاً على الأرض. الغرض الذي يحمل ثقلهما ويدفع بهما إلى الأمام يحيط بهما، غير مرئيّ ولكنه محسوس لا يقاوَم. ويهب الهواء بفستانها الأسود المترب ويلتصق باستدارات

الهيكل الشامخ الناعم الأحجار، وفي خطوته السريعة المنتظمة الإيقاع تتوفز ذكورته من جديد، في حموة داخلية، في توقٍ إلى الصدر الوافر يهتز بحرية وثقل لدن تحت النسيج الذي يتكور حوله من دفعة يد الهواء، والبطن المقبب الراسخ القوي، والساقين العاليتين الممتلئتين، بقدميها الحافيتين الكبيرتين الخفيفتين مع ذلك. لكن العينين واسعتان، مضيئتان، جارحتان، فيهما إبهام وصمت، ناعمتان مع ذلك، فيهما نداء وخضوع. لمن العينان، وما الوجه؟ الهش الطويل بشعره المجعد، طبقة أساسية سفلية من العظام الحادة تحت وجه آخر مليء بنعمة الدسامة فيه سمرة الشمس ورائحة الخبيز والحليب وروث الجاموسة السخن.. خضرة.. خضرة.. العينان السمراوان تنظران إليه بإلحاح، ودعوة. نظرة الأنثى العارفة الفاهمة، كأنها تقول له تعال ماذا تنتظر مني أن أفعل. قال حنونة نحن نذهب إلى بيتنا ونحن نعرف أين البنت، خرجنا لنستعيدها قبل أن يطلع عليها الفجر البارد. العينان صامتان، فيهما ثبات محايد. والتي تسير إلى جانبه، ومعه: هي كلتاهما معاً، وقد انحل كل تعارض، ولم يوجد، لم يوجد قط ذلك الصراع الذي طالما عذّب قلبه المخنوق، لم يرتعش جسده أبداً للمسة يدها الخشنة وهي تسلّم عليه من تحت الطرحة كلما جاءت في الصبح عواف يا معلم فانوس بصوت فيه طراوة وتمنّعٌ ما، لم تسخن أحشاؤه أبداً تحت وقدة جسمها الفارع الخصيب وهي تنحني أمام الفرن، وتركع تحت الجاموسة، وتعجن الجلة، وتأتي

بصفيحة الماء من حنفية المشروع على رأسها، يشر الماء من صفيحها الأبيض اللامع في شمس الصبح الباكر، بل هناك الآن شبع عميق وتملّك ورضى، وقد اندست رجولته، مراراً، لا حصر لها، في هذا الجسم الوثير الهش معاً، تحت هذه النظرة الساكتة المغوية معاً، في هذا البطن الوفير الهضيم معاً، تحت هذا الوجه الغض الشاحب المشدود المشرق معاً، في ذلك الكيان الأصلي القديم المشترك المعذب المحبوب الذي لا قلق فيه أبداً.

وقفا فجأة، في نَفَس واحد، لم يتبادلا كلمة ولا نظرة، وسكت الهواء مرة واحدة. كان البرد هادئاً، رازحاً تحت سماء نصف مقمرة بها غيوم قاتمة مقطعة كأنها ملتصقة بجلد السماء المتوتر الناشف، ظلال القمر السوداء تسقط على صلابة الأرض، حالكة السواد. من ورائها سور السراية القديمة، حجر ضخم رمادي مرصوص، تقع عليه فضة القمر المصبوبة، تحدد خطوطه وتعرجاته وأليافه الخشنة وحباته الرملية البيضاء التي يتقشر عنها جسد الحجر. البيبان مغلقة والشبابيك مظلمة، والفناء وراءها فيه نفح الهجران والخواء، واسعاً موحشاً بأشجاره العالمية الأثيثة. واصطفق مصراع نافذة على غير انتظار في الصمت وسكون الهواء، وخبط بحجر الحائط ثم ارتد، ليس هناك أحد يغلقه أو يفتحه. في ذهنهما شيء واحد مشترك: لا ينظر أحدهما إلى الآخر الآن، أبداً، أبداً. شيء يعقل لسانه عن أن يقولها، بينهما اتفاق معقود قديم. وهو مع ذلك مهموم مُعَنًى مدفوع به إلى أن يتكلم، إلى أن يفتح فمه، وفي حسه أنه

بـالصمت وحده يُحـوِّط على كنـزٍ ما، يصـونه من الفقـدان، وله عنـدئذ أمـل فقط في الخلاص، وأنـه مع ذلـك مشـدود مشبـوح بالرغبة في أن يلتفت إليها، ولكن الأمـل الأناني الـذي يخزى لـه قلبه، يكبحه، وهو يكز عليه بقبضة أسنانه في وقتٍ معاً. عليهما أن يخطوا الآن، الآن دون انتظار لحظة واحدة، على هذه القنطرة الخشبية فوق ماء الترعـة، إلى الشط الآخر. دون نـظرة للوراء. هناك، بعيدة ولكنها مرئية تملأ العين، لفة صغيرة سوداء في دائرة الفضـة الراكـدة، مرميـة عـلى الـرمـل المـرتفـع الأبيض، وسط الخـلاء. في مواجهـة السراية. لفـة صغيرة يمتـد إليها كـل قلبـه بأذرع مشدودةٍ أصـابعها تـرتجف من فرط التـوتر، محبـوطة، في فـراغ أحشائـه. ظلال سـور السرايـة وفضتهـا تنعكس في مـرآة الترعة الخضراء الداكنة، غـائرة، ذاهبـة إلى أسفل، حتى نصف القمر الذي يسـطع مقلوباً في عمق سحيق، بـين الغيوم الـواقفة السـوداء. ظلال السرايـة كلهـا، بـأبـراجهـا المـدورة الحجـريـة الواطئة، بنـوافذهـا المسدودة، وبـابها الخشبي الضخم المنحـوت بنقوش دائرية هندسية، في وسطها صليب بارز مربع الأضـلاع، وحـول أطرافـه استدارات كـأجسام الـزهور، كلهـا محددة دقيقـة المعـالم، تحت، في مـاء الـترعـة. أنت تعـرف أن هـذا القصر لا وجـود له، وراءك، معـرفة اليقـين الذي لا يحتمـل الشك. وإن كان لا يمكن أن تلتفت إلى الوراء، لا يمكن، تحت تحـديد خـطر صارم تعرفه، ومع ذلك لا تعرف كنهـه. لا تعرف مـا هو، لكن تعرف أنك لا تستطيع أبـداً أن تلتفت للوراء، وتتمنى من أعماق

قلبـك أن تكون هي أيضـاً عارفـة. نعم، بـل هي تعـرف، ولا يمكن أن تنظر هي أيضاً، إليك، وإلى السراية. أنفاسك المكتومة تتسارع من رعب القلق، لا تنظري.. لا تنظري.. شط الترعة يتحدر هيناً، ومرآة الماء المخضرة صافية الـوجه، البـاب أمامـك الآن، تحت، في المـاء، مـا عليـك إلا أن تنـزل من عـلى خشب القنطرة، أن تخطو على تربـة الشط الرمليـة المخضلة المتماسكـة ينز عليها ماء خفيف نـدي، وإن تهدي خـطواتك في العـالم المقلوب تحت الماء، إلى اتجاه بـاب القمر تمـاماً. أنت وحـدك. هي تفعل نفس الشيء أو هي تفعله معك، في وقت واحد. لا تـراك. ولا تراها. ولكنها معك، هنـاك، هي في داخلك، وخارجـك معاً. لا تـراها وهي مـلء عالمـك، دون أن ترفـع بصرك، معاً خـطوة بخـطوة، تحت السور العتيـد، الـذاهب إلى ارتفـاعـه المعكـوس تحت، في السماء المائيـة نصف المقمرة. حتى إذا وضعت قـدميك أمـام الباب مبـاشرة ابتلعك القصر فجـأة، ووجـدت نفسـك في داخله، في داخله، في الفناء، تحت السماء هنـاك، وأغلق الباب وراءك دون صـوت، ودخلت ولم يعد هنـاك أمـامـك ولا وراءك شيء، لم يعد هناك باب ينفتح لك مرة أخرى أبداً، لم يعد هناك إلا السراية المهجورة الخربة، يحيط بك سورها المتهدم العالي، لا منفذ منه، لا ثغـرة فيه، أنت في الـداخل، لا مخـرج لك أبـداً، تـظل تدور في الـبرْد الثقيل الصـامت، تحت الأشجار المتكـاثفـة البـالية، وعـلى الأرض ورق الشجر قـد سرى العفن إلى الأرض المخضرة بالطحلب تحتـه، وعطنت ثـمار البلح والجوافـة القديمـة

التي سقطت بين طبقات الورق المتراكم من سنين عديدة، جف وصوّح فوق طين آسن، تدب فيه حشرات الأرض البليدة السمينة وعناكب سوداء، بطيئة بما تحمل في بطنها من تخمة العفن. في هذه الممرات، بين أشجار عجوز عليك أن تدور، دون نهاية، تحت النوافذ المظلمة، لا باب هناك. لا، لا.. أبداً. لا ينحدرْ خطوُك إلى الماء، حنونة تشبثي بخشب القنطرة، لا تنزلي، لا تنزلي معي، لن أنزل أنا، أبداً، أبداً، هناك، انظري، على الشط الرملي الأبيض بنتنا. ذراعاه ممدودتان، عيناه مشدودتان، قلبه مشبوح مسلوب ونظره معلق بالقامة النحيلة الشامخة في الجلابية السوداء، على وسط خشب القنطرة، المقوس قليلاً، مرتفعة عنه، تنظر إليه من فوق، بعينيها الواسعتين في القمر، صامتتين، دون غواية، ودون إدانة.

والحدادي العريضة الأجنحة تدوّم وتحوم تحت صخور الغيم في السماء، هائلة الأبعاد في انفساح جناحيها، تدور دورات متتالية هابطة، وهي تتضخم ويتسع انبساط جناحيها الساكنين دون حركة، ثم تنقضّ بصمت، ونعومة، على اللفة المرمية وسط الرمل الأبيض المرتفع، وراء الشط الآخر، وترتفع، مناقيرها خالية، وتحلق إلى علو بعيد، ثم تعود، وتعود، وتعود، دون صوت في كل مرة، ليس في مناقيرها المِزَع الممزقة التي لا يُطاق مرآها، في هذه الدورة التي لا تنتهي.

في اللحظة التالية كانا معاً، تحت الماء، في الترعة العكرةِ

السُمرة، وقد انعقدت الظلال وبقع الفضة السائلة معاً، واندمجت، وتقلبت في اهتزاز الموج البطيء. والماء قابض وضحضاح، والأرض تميد تحت جسميهما، لا تكاد، لزجة، رملية، ويشبّان معاً، ويخبطان بالأذرع، ولا رشاش هناك، يحتفظان بالوجه فوق الماء، يشهقان في طلب النَفَس، ثم ينقلبان في الماء معا، دون غرق، يحتضن بين ذراعه الجسد المبتل الذي التصقت به الثياب وارتسمت كل تفاصيله تحتها، في شفافية محسوسة، تدفعه ليلتصق بكل استدارة فيها، ويطفوان معاً، في تموّج متماسك، متمددَيْن، يحملهما الماء دون جهد، ولا يخرجان فوق سطحه، والماء قد انحسر بجلبابها الطويل عن ساقيها المستديرتين اللامعتين من البلل، في لحمها، تحت يديه، بضاضة جديدة طازجة تومض في عتمة الماء المقمرة نصف الشفافة، والقمر يلوح ويختفي الآن من فوق الموج، يشع وينطفىء، قرصه نصف الدائري يهتز ويتساءل ويذوب ويعود إلى الاستدارة الساطعة الصلبة الحدود، والزمن طويل، وخاطف، ولا حس له به، وذراعاه العاريتان تحيطان بالفخذين الشاختين تحت الثياب المبتلة، وجهه غارق، توتره الراضي المرتاح لا ينتهي، وفي فمه طعم الماء واللحم العذب المضطرب.

قال لها تأخرتُ كنت أريد الخروج مبكراً قالت له نعم تأخرت لا تريد أن تفطر قال لها أفطر فيما بعد قالت الإفطار جاهز قال تأخرتُ كنت أريد الخروج مبكراً قالت نعم وكانت الشمس وراء الحوض الشرقي هناك ومع ذلك لا يبدو أنها قريبة

الشروق كـأننا مـا زلنـا في أول فجـرٍ دائم مقيم لا يتحـرك معتم وشفاف معاً والسحاب الرمادي الزرقـة مشعث الأطراف والهـواء الباكر يسف بالتراب من على صحن الجرن الواسع النائم بحفرته العريضة الغائرة الجافة، والبيوت حواليـه مائلة متسـاندة رثـة في نصف دائرة مضطربة تهبط أرضها وترتفع حول الجرن.

وكان يسير مسرعـاً مُحنياً رأسَـه أمام ضربـات الهواء الجـاف، الـبرد غـير مشبـع وغـير بليـل يخِـز العـظام المـرهقـة الخـاويـة، والفـلاحون يلتفتـون إليه في طـريقهم للغيـطان، وعـلى أكتـافهم الفؤوس والمخـلاة الخيش والمقـاطف.. السـلام عليكم وعليكم السـلام ورحمة الله، لا يعـرفه، أو لا يـذكره، وهـو يقضم فحل بصل في يده الضخمة السوداء المفلطحـة الأظافر، خشن الوجـه من النـوم، على رأسـه منـديـل معقـود، ومن ورائـه تـأتي عجلة مسرعة والجلباب يطير بين الحيطان المصمتة. وانحرف في السكة المؤدية إلى الجنينة، وهو ينزل وساقاه تتقاربان وتتداركان في سرعةِ تحدرِ السكة حتى وصـل فجأة أمـام دكان الـطوب النيء المفتوح عـلى الجرن من النـاحية الأخـرى. كان الـرجل غـارقاً في حفـرة طينيـة لـزجـة واسعـة، وحـواليـه في الـدكـان قـوالب الخشب بمستطيلاتها المتجاورة الفـارغة، ملقى بهـا على الأرض ومنصـوبة على الحائط الرمادي ساقاه تغوصان حتى ما تحت الركبتين، كأنـه على عبتات النزول في البركة المحفورة التي تنـز بماء قليـل صدىء ثقيـل الـوزن. وهـو يعجن الـطين والتبن بـذراعيـه المفتـولتـين الملطختـين بـالـوحـل، ينحني بصـدره القصـير المـدكـوك المتين

ويعتدل، يملأ فراغ الدكان ونصفه مدفون في الأرض، قميصه مقور الفتحة، مقطوع الكمين، أسود جاف متصلب، ودقنه الكثة تخفي فماً واسعاً غليظاً تحت الشارب الغزير الحالك، عيناه خفرتان عميقتان، وهو يلقي بالسلام، كأن فيهما لمعة سخرية.

وعندما خرج إلى الزراعية في طريقه إلى جنينة الجوافة كانت السماء ما زالت كاسفة الزرقة، كابية، باردة، مُسجَّاة. كانت الساقية الحديدية بلونها البني المحروق صامتة مبلولة الصدأ من ندى الصبح، تشق البئر وترتفع تحت ظل شجرة التوت العريضة الجاثمة، حيث نور فَجْرٍ أكثر عتمة وأقل شفافية، وإلى جوارها خيمة العساكر بيضاء باهتة، تبدو متهدلة غير مهمة، وبجوارها عربة الجيش المصفحة، ودبابة صغيرة من طراز قديم كأنها لعبة معدنية بلونها الأصفر المطلي الجديد، ولكن مدافعها الرقيقة الطويلة وسلسلة الجنزير العريضة السوداء القوية، على تراب الطريق، وبرجها القليل الارتفاع، تحمل كلها قوة كامنة متربصة تحت المعدن الذي يبدو مع ذلك هشاً، وعليه أرقام وحروف لا يكاد يقرأها من بعيد. منذ مدة طويلة والأخبار والإشاعات تجري بأن اللجنة قادمة للتفتيش، ولكن العمدة يضحك ويهتّ في الناس. جاءت اللجنة أخيراً إذن، ومعها قوة. كنا نظن أنهم سيكتفون بمندوب الإصلاح في المركز ومعه عساكر الأمن وضابط من المحافظة على الأكثر، ولكن هذه هي اللجنة، ومعها قوة. يا فرج الله، لا بد أنهم أجرُوا التفتيش الليلة الماضية في السراية. أخيراً. أمامه اليوم عمل كثير، وسين وجيم، ينفض ما على

قلبه. ليس لديه إثبات، صحيح، لكنه على يقين، وسيقول، سيتكلم بالعقل يا وله. بالعقل يا فانوس، أوع تصرّخ أوع تهبّل، ما عليهم إلا أنهم يطلبوا الدفاتر كلها، والفلاحين كلهم، ويحققوا. وسيعرفون، سيعرفون. هلٍ يتكلم الفلاحون بعد الصمت الطويل؟ هل يتكلمون أخيراً؟ ويقولون عما في القلب من همّ وغمّ؟ والعمدة هل يكون موجوداً عند سماع الأقوال، ويشخط وينطر، ويجيب سيرة الآباء والأمهات والأخوات هل تنفك عقدة اللسان، ويكشفون الورق، أم تطويهم اللعبة من جديد؟ فيهم، نعم فيهم عيال بقلب حديد، وألسنة كالكرابيج.. آه يا ولاد، لو أفش غليلي، وأنقع السم عن قلبي، وأشوف فيهم يوم.

دفع باب الجنينة وخطا بين أعواد حطب الذرة النحاسية الداكنةِ القشرة على التراب، في تقطّر نور الصبح المبكر، تحت السَنْطة القديمة المجعدة بعقدها الخشبية الناتئة، وبين أشجار الجوافة القصيرة، مصفوفة، منشعبة، في خطوط هندسية، والممرات التراب بينها مغطاة بأوراق صفراء ومخضرة هشة ضامرة تخشخش تحت قدميه وتتهشم ويطير بها الهواء.

وملأ عينيه البرج الجاثم الطيني، بثقوبه الصغيرة، رازحاً، دائرياً، عريضاً، من تحت، يستدق وهو يرتفع، وتبرز من أعلاه نتوءات خشبية من كل جانب، كأشواك في جانبي فم حوت بري، جسده من الطين النيء. وأسند السلم الخشبي النقالي

إلى جسم البرج المتين، وراح يرقى العوارض الرقيقة الحرجة، ممسكاً بقائمتي السلم الجانبيتين، يدرج، في كل خطوة إلى أعلى نحو سماء مُسفة هابطة إليه، مهددة، وقد أخذت هبات الهواء تصفّر، وترتطم حواليه، وتلصق جلبابه الصوف بجانب صدره مرة، ثم تنفخه وتملؤه حتى يكاد دفع الهواء يحمله، رغماً عنه، ويلقيه إلى تحت، في هوة الفراغ، نحو الأرض التي تبتعد، وتصغر، وتبدو تحته قاسية، غير مرحبة، بأشجارها المصفوفة التي يرى، من فوق، نواصيها المتكاثفة تبرز منها الأغصان المدببة العارية الأطراف.

الغيطان تحته، وهو يرتفع، موحشة، خاوية، نائمة في نور مبهم، زروعها قصيرة، مقرورة، ترتجف، والقنوات بينها متعرجة بمياه مسودة. وهديل الحمام رتيباً، ملحاً، يتردد في السماء المغلقة، يخطفه الهواء منه، فيخفت ويبتعد، ثم يعيده إليه في نفحة باردة، متضخماً يملأ البرج والسماء معاً بطنين ناعم مستمر مضطرب، وخفق الأجنحة في هياج الريش الوثير الرقيق، وهي تتضام على قباب الصدور الممتلئة بشهيق متخم بالأنفاس المختزنة ونفث الهديل، بزغبها الملون المتقلب الألوان في النور المكتوم، يتموج عليه الريش الناعم رمادياً ورصاصياً وأزرق وأبيض ومخططاً بخطوط منسابة أليفة. وهو ينظر في كل خن، ويمد يده إلى الدفء الضيق الزخم برائحة الزبل الجاف الحريف، ويتحسس العوارض الخشبية الناتئة من البرج، تحت يديه، قوية الألياف، متينة، عليها بقايا الزبل الأبيض في تخثرات

صلبة الملمس مشعثة الحواف تتبدى بينها فجأة عضلات الخشب الخشنة الرفيعة المفتولة محترقة من طول التعرض للبلل والشمس.

ويطير الحمام من على العوارض ومن الثقوب، ثم يعود، يسير متئداً برشاقة متحيرة، يدير رأسه كل ناحية، وينقر تحت جناحيه وفي صدره بإلحاحٍ وبحث، ويغوص برأسه في الصدر الأصهب الأبيض، غارقا بعينيه في نعومة الشعر، والعصافير تزقزق، متفزعة خفيفة لا وزن لها، ويأتي اليمام البري نحيلاً، ينظر إليه كأنما لا يكاد يقبل وجوده هناك في العلو الفسيح الذي ليس له مكان فيه، يرتفع باستمرار دون وصول، ويظل يرتفع، بلا نهاية. اليمام الذي لا تربطه به رابطة، كأنما يتنازل حين يرضى بأن يحسو ماءه، أو يلتقط الذرة والغلة من برجه، طليقاً، غير مقيد بحُبّ الناس.

استدارة البرج تحت يديه دافئة في الصبح الغائم الشاتي، بطينها الجاف المخطط بخيوط التبن النحاسية، وهو يتحسسها، ملء ذراعيه، فيطير الحمام قليلاً إلى بعيد، ثم يعود إلى العوارض الخشبية، ويهرب إلى الحنٍ المعتم الداكن، ما يزال يهدل وينوح بإيقاع رتيب لا يفرغ أبداً. قدماه تهتزان على عارضة السلم، وهو يعلو يُسنِد جسمه كله، لحظة إلى الجدار الممتلىء في دورانه العريض البطيء. يسري إليه، من الحياة التي تعمر داخله، دفءٌ ناعم ينبض في أنين خافت مستمتع. وجهه قريب جداً من الحائط الطيني، في عظامه جوع إلى الاقتراب منه، والتمرغ على صفحته البضة المتلقية. الجسد الطيني الباذخ يصعد إلى الهواء،

شـامخاً، من فـوق عينيه الـظامئتين المحـترقتـين. يحتضن الـبرج احتضـاناً وثيقـاً متشبثاً كـأنه في قبضـة صراع قاتـل لن يسلّم فيه أحد الطرفين. لا يكاد يرى قمة البرج، تتخايل له، على السطح المقبب البعيد، عينان واسعتـان في عتمة غـير مستبينة، والأيـدي بمخـالبها المقـوسة تقبض عـلى ذؤابة قلبـه، وتعتصره، تلقيه، في عناق الصراع الصموت، شلواً جـافاً في ظلمـة مقفلة أرضها من طين ناشف عار. إنها هناك، جـاثمة في مـأواها، لا تُنـال، منيعة لن تـطولها يـداه قط. لن يستطيـع الصعـود إليهـا، وهـو يـرفـع جسمه، بجهد، إلى العـارضة الأخـيرة الصغيرة في السلم الـذي يتذبذب أهون ذبذبة، لا يكاد يتأرجح، ولا يسقط. ويمد عينيه إلى الحَن الأخـير، وقلبه يهـوي منه، ويـتردى، في معرفـة سابقـة بما يراه، ويراه حقـاً في عتمة الكن الصغـير الخاوي، رأس الحـمامة الصغـير المعوج العـظام، ملقى بـه عـلى الـطين، مبتـوراً. عـلى جلدتـه الشفـافـة زغب مشتت هش. والقـدمـان الصغـيرتـان، بـأصابعهـما الـدقيقـة الحمـراء، مقـطوعتـان، لم تكـد تنبت لهـما المخالب الصغيرة الوديعة، مشلولتان، ملتويتـان، كأن الحيـاة قد غاضت عنهما فقط منذ لحظة. وكـومة صغـيرة من ريش متناثـر، الحـمامة الصغـيرة افترستهـا، قبل الفجـر، نـظرةً ثـاقبـة، صلبـة قاسية. وكأن فماً فاغراً في داخله، محفـوراً في جدار نفســه يصرخ صرخـة طويلة لا تنتهي، تنـوح بلا أمـل، يتردد صـداها، حتى الأفق الغـامض بين دغـلات الأشجار الصغـيرة في البعد، المثقلة بأحزان الصباح الجديد.

لا يرى شيئاً على سطح البرج المكور الصقول، لا يجد شيئاً على الجدار القاحل المسدود،ذراعاه تعانقان، بلا جدوى، ولا تَحَقُق، استدارةً دافئة ناعمة ولكن متماسكة لا تلين.

ونظرته لا يستطيع أن يحولها، من وراء استدارة البرج التي تسد نصف الأفق، عن المرتفع الخشن بنباتات الحَلْفاء الشائكة، تمتد جنبه وتحته مياهُ النشع الملحي المهجور، والطين المغطى بكِسَر من الملح الثلب الرمادي يلمع في نور الصبح الغائم. وعلى المرتفع نتوءات القبور المستطيلة المحدبة الظهور، بصلبانها المعوجة الساقطة، صغيرة، مهملة، لا أهمية لها، تحت الأغصان الملتفة المتراكمة، المضرجة بنقط دموية قانية، غضة الاحمرار، في الأشجار الكثة الوحشية.

في الشوارع

كانت العينان اللتان تنظران إليه قاسيتين، معاديتين، يعرفهما طول عمره. تواجهانه، بصمت، من غير لغة. ولا يريد أن يرد عليهما.

وكان مس الموسى ينزلق على صفحة وجهه الغارقة في رغوة دمثة. معجون الحلاقة له لذعة خفيفة على الجلد، احتكاك الموسى بوجهه ناعم نظيف مريح. وفي الحمام هدوء ضوء الصبح النائم، ويأتيه فحيح البوتاجاز خافتاً من بعيد، تحت ماء يغلي في أمان. وقد انجابت فرقعة أوتوبيس المدرسة من قليل، وذهب يحمل الأولاد وهو يعوي بزمارة دعيّة صخابة، ويرتجّ لمروره زجاج البيت.

ربنا يستر. لعله لا يطلع عليهم في الطريق، وتحدث حادثة.

هذا القلق نقطة صلبة خشنة الحواف لا تنحل، ولكنه، بشكل ما، ينعّمه ويصقله ويغطيه، لا يذيبه ولا ينساه ولا يتجاهله، بل يقبله ولكن يدفعه بعيداً تحت طبقات أخرى من الرجاء والتعلل بالثقة من أنه لن يحدث شيء. وماذا بوسعه أن

يفعل؟ كل الناس تتكلم، ولكن الصحف والإذاعة والتلفزيون لا تقول شيئاً، بإصرار. لا أحد من معارفه أو أصدقائه أو أقربائه رآه رأي العين، أو سمعه بالفعل بأذنه. كل الناس سمعت من مصادر ثقة، كل الناس عرفت من أصدقاء وأقرباء لا يمكن ولا مصلحة لهم أن يكذبوا أو يروجوا إشاعة لا أساس لها. سلطات الأمن تعمل ليل نهار وقد جندت قوات خاصة لتعقب حقيقة الأمر، ولكنها تحرص أن يكون ذلك من غير إعلان، حتى يأتي اليوم المشهود.

وهو لا يكاد يصدق، أو يصدق. ولكنه لا يعتقد أن الأمر يمكن أن يتعلق به أو يهمه مباشرة. قد يكون صحيحاً. لعله فعلاً يمر بالشوارع، هناك، بعد الشوارع، ولعله فعلاً يهاجم الناس، ويقع المصابون، ما من أحد رأى شيئاً حقاً. ولم يظهر في طريقه على أي حال، ولا طريق الأولاد في المدرسة.

صحيح أنه التقى، بمحض الصدفة، بإثنين أو ثلاثة من معارفه القدامى. وكانت الأخبار قد ترامت إليه أنه اعترضهم في الشارع، وأن شيئاً ما قد حدث. أصابتهم جراح، ويقولون أنهم يحملون آثار تشوهات. لكن لم يكن يبدو عليهم شيء، لا أثر لجرح، أو صدمة. لعلهم يحسنون إخفاءها.

كانوا حريصين على أن يظهروا بمظهر طبيعي جداً، طبيعي أكثر قليلاً مما يمكن لك أن تنتظر. وسلم عليهم هو أيضاً، بحرارة أكثر قليلاً ـ قليلاً جداً ـ من المعتاد، وتبادلوا التحيات

والمجاملات وأنهوا ما هم بسبيله، وانصرفوا. لم يشيروا إلى شيء ولو من بعيد، لم تجر كلمة بينهم عن الموضوع كله. هل في نظرتهم شيء بعيد، غائب، أو مكتوم؟ ربما كان هذا كل ما في الأمر. وهم يستحقون ما وقع لهم على أي حال ـ إن كان قد وقع لهم شيء. لماذا يتصدون له؟ لماذا يخرجون إليه؟ ما لهم هم؟ فإذا كانوا قد ذهبوا إليه، في سكّته، عمداً أو عن غفلة، فلعلهم كانوا قد حسبوا حسابهم، من الأول. ونالوا جزاءهم على كل حال. كانوا إذن قد قبلوا المخاطرة والنتيجة الضرورية للمخاطرة، أو استحقوا ما يجري للغافلين. ماذا حدث لهم؟ ما تلك التجربة يطوون عليها نظرتهم المرتدة إلى الداخل تتجنب الالتقاء والمواجهة؟ ماذا يمكن أن يحدث ـ على أي حال ـ في الشوارع الصيفية الضيقة الغاصة المحرقة المتراكبة بالحر والزحمة؟ بين الأوتوبيسات المتوحشة الثقيلة الهاجمة، والبيوت القديمة جففتها الشمس واغبرت بترابٍ خفي عنيد صفحات وجوهها الذابلة المتساقطة الجلود؟ بين مواكب الناس المدومة المختلطة المتشابكة التي لا تنتهي بالجلاليب والقفاطين والفساتين والملايات والبنطلونات والبلوزات، بالجزم والبلغ والصنادل والأقدام الحافية، أمام الدكاكين المفتوحة وسيارات النقل الضخمة المشعثة الحمولة، بين عساكر المرور بعصيهم القصيرة ووجوههم السوداء الغارقة في الملل والعرق، على الإسفلت المشقق، وجزر البلاط الضيقة الشريطية وسط الشوارع، والخضرة المصفرة الساقطة، وأوراق الصحف والنفايات المتطايرة وأكوام التراب الصغيرة،

بين أكشاك السجاير والبضائع المستوردة، والكتب والمجلات الملقاة على الرصيف، بين الأنوار والصفافير والسيارات اللامعة، والتاكسات المكسرة، والعربات الكارو والترامويات وعربات الفاكهة والفجل والجزر؟ ماذا يمكن أن يكون قد حدث لهم، أن يكون قد فعل بهم، في الشوارع، وفي وقدة الشمس العارية البذيئة وفوانيس النور وإعلانات النيون؟

كانت دفقات الماء الفاتر تنصب على رأسه ومؤخرة عنقه، يجمعها بين راحتي يديه من تحت الحنفية، ويطس بها وجهه، ويلقي بها على رأسه، فلا يسمع إلا صدمات الشلالات الصغيرة المفاجئة، وهو يشهق باستمتاع، وعنف، ويجفف وجهه كأنما يكحته، كأنما يريد أن يمحو شيئاً لا يُرى ولا يمحي.

كان الأوتوبيس الضخم ينطلق غاصاً بالناس ولكن صامتاً، على حافة النيل. وقد فتح الشباك إلى جانب وجهه، وساقاه مرتفعتان في وضع حرج، قدماه على الاستدارة الحديدية الناتئة فوق العجلة الأمامية، ناعمة، مكشوطة بان صدؤها، والزحمة قد تحولت الآن إلى نوع من العجينة الثابتة الرخية، انحسرت عنها تقلبات النزول والصعود وصراعات الوقوف والتحرك، وقطع التذاكر ـ أو التهرب منه ـ واصطياد المقاعد والتربص بها والبحث عن مواطىء مريحة للأقدام. وفي داخل الكتلة الضخمة المندفعة كأنما رغماً عنها، لا تملك أن ترد حركتها أو تطامن من انطلاقها، كان يحس موجة ثقيلة ولكن مقبولة، بل مريحة، من التماس الوثيق الحميم بين الأجسام التي همدت ـ في توتر متراخ ـ

وأمنت لحظة من لجاجة شدٍ وجذبٍ لا ينتهي وأحاطت بها جدران ملفوفة، مصقولة، توحي بالاطمئنان في قوتها الذاهبة إلى غرضها لا تحيد، هشة ولكن مفتولة الذبذبات محكمة الرقائق، بين زجاج النوافذ السميك المترب الشفافية، والمقاعد الجلدية البلاستيك اللامعة من احتكاك الأجسام العرقانة، والأعمدة النيكل الرقيقة المدورة. والأرضية، تحت الأقدام، تهب وتنزو وتنحط في انسياب متموج يقترن بأرض الشارع ويسيطر عليها بثقة.

وقد امتلأ الأوتوبيس بهدير المحرك والأنفاس الحميمة الهادئة والتلاصق الذي استقر، لحظة، إلى نوع من الرضى والقبول ـ ما أندره! ـ بين الناس بعضهم البعض.

وهواء النيل يدخل إليه، فجأة، من على صدر المياه الواسع العريض، فيغمض عينيه، ينفحه الهواء بنشقة تملأ قلبه براحة أخرى، كأنها صوفية، وكأنه لم يكن قد أوى إلى ذخر من التعلات، وذكاء الحيوان الذي يريد أن يتشبث بالحفة، ولا يقع.

في وسط براح المياه الرقراق مركب وحيد صغير أسود، يبدو من بعيد مشققاً أعجف، قشرة ضئيلة نحيلة يصعد بها وجه المياه ويهبط، في رفق. ينبثق منها شراع أبيض مفرود شاهق الارتفاع ممتلىء بالهواء، روح قوية عريضة الجناح، تشق طريقها بتوق ووجد إلى السماء الباردة الزرقة، يحملها جسم هزيل خشبي ضامر

تلعب به موجات صغيرة وسط تيه شاسع في سهل المياه الرمادية.

وتحت عينيه شط النيل ينحدر إلى التفافات كثيفة محروقة الخضرة من نباتات الحلفاء والبوص، ورقعة صغيرة ممهدة مزروعة، على الشط، بأعواد صغيرة من الذرة المهدلة الشواشي، وخصّ صغير مكسور من الخوص والطين الجاف، لا باب له، وعلى الشط الآخر اهتزازات نور الصبح، بلا صوت، بين حيوانات غامضة أليفة قاتمة الخضرة من الأشجار اللفاء العجوز والبنايات المرتبة المنسقة، طَهَّرها بُعد المسافة والضوء المائي من وحشيتها، وروّضها، وغسل عنها سوقية الحسابات العارية، لانت واستكنت، في نوع من اللدونة الطفلية، تحت نور الصبح وتراوح نغمات الخضرة وقتامة ماء النيل.

ارتفعت صرخة الفرامل فجأة ثاقبة، كاشطة، تنوح. لف الأوتوبيس على الشط لفة واسعة، سريعة جداً، ومالت الكتلة الضخمة، في هدير المحرك الذي يئز في ذعر وغضب معاً، وأحس العجلات تحته تخرج عن حافة الإسفلت الصلب الأمين وتثب، في رجة تهدّ العظم، فوق بلاط الرصيف، وتحتك، متشبثة، بتراب الشط الهين القوام. واندفعت من جانبه سيارة نقل، تكركر في ثقل، وفراملها تعول أيضاً في صرخة بطيئة، وأطراف حمولتها من أعواد الحديد الصدىء الناتىء تكاد تخترق زجاج الأوتوبيس، وكتلة الأوتوبيس تنزل على الجسر الطيني، منحدرة بمقدمتها العريضة إلى أسفل، وتدخل تحت كتف من

جـرف بارز، مجـوف، عـريض. الأرض، تحت العجـلات التي تـدور سريعة تتلمس النجـاة والحياة، لـزجة رخـوة طينية لكنهـا تحتمل ثقلها، حركتها الـدائرة الجـارية تهبشهـا في استماتـة، وقد انحشر سقف الأوتوبيس تحت الكتف الطينية الثابتـة، تخمشه في خشونة ولا تنشدخ مع ذلك، وتمر غيامة خاطفة من العتمـة، في الفجـوة القريبـة من النيل، ولم يعـد في العربـة إلا لحظة صمت كاملة، كأنها الأبد، من غير أنفاس، انجابت فجـأة كما سقـطت فجـأة، والسائق يـدور والنـاس تهتف وتصرخ وتميـل وتـترنـح، أذهلتهم المفـاجـأة وهبت صيحـاتهم ودعـواتهم الملهـوفـة، مـلء عيـونهم تقلبـات متعـاقبـة من الأرض والمـاء والإسفلت والـطين المتماسك، والسـائق يغير السرعـة في حمى البحث عن الخلاص، واليقظة الحادة، ويضغط على البنزين، ويرتفع الأوتوبيس بجرمه الثقيـل وقوتـه الـدافعـة إلى أعـلى ويصعـد، وتتشبث العجـلات الأمامية بثبات جديد في منحدر الأرض المرتفعة وتزحف مندفعـة إلى فوق، على أرض تهدد كل لحظة بالانهيـار ولا تنهار، ويتشمم خـطم الأوتوبيس الأرض المـرتفعة ولكنـه لا يمسهـا، ينشق منهـا نفس حيـاتـه ورائحـة الـتراب، ويشهق، شهقـة واحـدة متقلبـة الـزئير، يـزوم في هـريـره الممتـلىء الصـدر، ويـزحف إلى أعـلى باستماتـة، والعجلات تـرتفع عـلى أرض لا أفق لها، إلى حـرف السـماء تتوقـل صاعـدة على جـرف لا يسقط ولكنه لا يصـل إلى الأمان، في نفس اللحظة التي تدمدم فيها قعقعة مكتومة ويتخبط السقف بـالكتف الترابي، وينـطبق إلى تحت فوق رؤوس النـاس

تحت ضغط الطين الجاف، ويتقوض جرف هش من كتل التراب الجامدة على الشط وتسقط الكتل الصغيرة من غير صوت ويرتفع منها رشاش بطيء، موسيقيّ الحركة، لا شأن له بشيء، وهناك، فوق، من بعيد، على الأفق الشاهق الارتفاع الذي لا تصل إليه العجلات في دورانها المتماسك الحرج المصمم الملهوف، تحت صفحة السماء، بإزاء خلفية العمارات الملونة بالبني المنطفىء والأزرق الكبريتي الكابي، هناك، وحدها، متميزة قاطعة الحواف، عربة تين شوكي، على عجلاتها الخشبية الدائريه الرقيقة الفروع، أخشاب العجلات المفرغة تبدو من خلالها زرقة السماء، رقيقة مشعة من المركز، منفرجة من بؤرتها المكورة الصلبة، في موسيقى هندسية ثابتة، وأكوام الحبوب الشوكية، عالية، غضة بعصارتها، نباتات عَصية وكثيفة الغنى، لا تبالي، تحديها لا رد عليه، وبجانبها صفيحة الماء تومض بشعاع لا تطيق عيناه أن تستقرا عليه.

عندما دخل إلى ميدان التحرير آتياً من اتجاه كوبري قصر النيل، في نور الصبح العاري الثقيل، وما زالت قدماه غير متوازنتين قليلاً، لا تكادان تستقران على الأرض، ورفع رأسه ليعبر الطريق، سمع صوت النافورة لأول مرة، واضحاً في الشمس، والمياه تسقط على الرخام المفكك المتآكل، وحفيف التراب في أوراق الشجر الجافة.

كان الميدان، تحيط به شوارعه المسفلتة وتخترقه ممرات متلوية وفسحات من الخضرة الناصلة، خاوياً. ميدان في وسط بلد

ريفيـة، وبنايـات المجمع، والمتحف، والعـمارات القـديمـة، من ناحية، رازحة كلها، وقصيرة، ومفلطحة، بهائم ضخمة كسـول حول الجرن، مـدت كتل أقـدامها العـريضة ودفنت رؤوسهـا في كومة عظامها الساقطة، الهـامدة. ومن النـاحية الأخـرى اقتحام الهيلتـون برشـاقةٍ لا حيـاة فيها، سـوقية جـدران مصقولـة حادة ملطخة بمساحات مقطوعـة من الألوان الجـارحة. ميـاه النافـورة تعلو، في غـير همـة، وتقـع، متنـاثـرة القـطرات عـلى الحـوض المكسور. والمماشي الترابية المتعرجة، خـالية، عليهـا أوراق ممزقـة يتطاير بها هواء مسف مـترب. خلية الأوتـوبيسات الحمـراء تموج بنحـل ثقيل قـذر، تطن ببطء وتـزاحم، لا تـدور حـول مـركـز إشعـاع، تنسـرب في الشوارع من غـير وجهة. إعـلانات النيـون حمـراء زرقاء تـومض وتنطفىء، تسـطع بـاهتـة في النـور الجـامـد المحايد، لماذا أضاؤوها في نور الصبح؟ وظلال النـاس القاتمـة في الشمس، تسير في غير سرعة وفي غير بطء، محنية، يحسها قامات سوداء رفيعة رثـة هزيلة مجـوفة، في وسط إشعـاع رازح شامـل، تختط طريقها إلى كنّ الحيطان وأمن الأثاث والكـراكيب والمكاتب والسراير الرثة.

ومـرت من أمامـه، كأنمـا تأتي من عـالم آخر، دراجـة مسـرعة رشيقة يدور بها صبي جنايني، ويستدير عسكري المرور ليفتح لها طريقاً خاوياً لامعاً أسود ليس فيـه غيرهـا، وخلف الولـد، على السلة الحـديديـة المعلقة بـالدراجـة، أكوام شـاهقة من الأزهـار الأثيثه المكتنزة الجسد، طرية غضة، يتدفق غنى ألوانها في النور،

في لدونة لحم حي وثير، ورقّته، مقطوعة، ملفوفة إلى بعضها البعض بخيوط خضراء من أعواد نبات، أشرطة حمالات تحز في بضاضة البياض وفي نداوة الألوان الوردية وتحدي الحمرة اليانعة وكثافة الزرقة المليئة بالعصير، خطفت أمامه وابتعدت، في كل مجدها الحسي. كأنما غرق في لحظة في طيات جسد امرأة باذخة، في لحظة الحرارة الأخيرة الناعمة.

كان الجرم الصغير الوديع، بسنامه الصغير على ظهره، يأتي من يمينه، من ناحية باب اللوق، بين سيارات قليلة متباعدة، تنحرف وتختفي في الشوارع الجانبية، تتجنب الميدان، وتنسل من تحت اللوحات الخشبية الضخمة ملصقاً عليها إعلانات الويسكي والسينما الورقية الممزقة الأطراف. وتراءت له قبلة شرهة بذيئة فاغرة فاها، لا تتحقق أبداً، بين وجه رجل بنفسجي كامد مخطط، وامرأة راقدة حمراء عارية الساقين تأكل جسدها الحروف المتضخمة المتعرجة.

اقترب من الشارع الخلفي عند مبنى وزارة الخارجية القديم، طويلاً، بارز الأسنان في وجه أسمر نحيف العظام، ووقف بجانبه، ينتظر إشارة المرور. كان الطريق مفتوحاً. هادئاً في قميصه الأبيض المشمور الأكمام، ذراعاه مسترخيتان، تنتهيان بأصابع مستدقة سوداء الأظافر، في ساقيه رشاقة توحي بقوة خفية، بمقدرة خارقة على القبض والتملك، في قدميه حذاء تنس من قماش حال بياضه إلى سمرة.

أحس رغبة أن يقول شيئاً فالتفت إليه، وقال بجد:

ـ لماذا لم يضربوه؟

ـ لا بد أن يأكل.

ـ لا بد أن نأكل كلنا، ونعيش.

ـ الجو حر.

ـ أول الصيف. الحر جاء مبكراً.

ـ سنعود بالليل لبيوتنا.

ـ وأين بيته؟

ـ لا بد أن يسير المركب. سواء كان النيل هادئاً أم غير هادىء.

ـ سيأتي الليل أبطأ من السفينة. هذا كل شيء.

التفت فجأة، فرآه. لا يتحرك، قريباً منه في وسط الطريق، وحده.

كان ينظر إلى الجرم الضخم قادماً من اليمين، بعيون عاقلة وشرسة، يتربص، دون أن تختلج فيه عضلة.

لا يصدر عنه صوت، لسانه العريض الأحمر المحبب، مدلى من فمه، مبرد حي مشحون بطاقته، ساقط من تحت الأنف الضخم المفلطح، أقدامه ثابتة لينة على الإسفلت الأسود، جبهته المرقطة مدورة، هابطة، وجفناه الثقيلان ينزلان على عينيه، كأنه نصف مغمض، مرهق من السفر، هادىء يعرف سيطرته،

ينتـظر بثقة لحـظته، وكـأنما تخلخـل الهواء من حـواليه، وفـرغ، وملأته شحنة جديدة غير مرئية من القوة والتهديد.

وأحس صدره يضيق. وألم غير مستبين ولكن موجـع وضاغط يقبض عـلى عـظام ضلوعـه، بخفـة ولكن من غـير أن يفلتـه، ويتهدد، وتتركز له نقط حادة في مكان قلبه.

ما زال يخب في فسحة الميدان الواسع، قادماً إليه، شـامخاً في كيانه البطيء الناسي، بنوع من الرشاقة المهـتزة الثقيلة، ينظر من عل إلى الأمام، في غير مبالاة.

سمـع صـوت الهـريـر العميق الأجـوف الخشن، يـتردد ويتضخم، وإن كان ما زال في طبقة تحتية مدفونة، ويملأ سكـون الميـدان الذي تتنـاوش صمته أصـداء خافتـة من نفـير سيـارات وصلصلة ترام بعيدة، وحفيف النافورة.

سـوف يثب الآن، وينقض عليـه بمخـالبـه المشرعـة الثـاقبـة الممـزعة، وسـوف تسقط كتلته المـدمرة بهجـوم مندفـع لا يوقفـه شيء، بحيـوية خـاطفة لا راد عليهـا، وينطلق الـزئـير في نشـوة الهجوم، وتنشب الأنياب المدببة في العنق الطويل. سـوف يختلط الخوار المفزَّع الشاكي الأجش، بزمجـرة النهش والتمزيق المتقـطرة دماً. ويسقط الجرم الشـاهق على الإسفلت، تحت دفعـة الوثبـة المنقضـة عليـه. ولكن تتشبث بـه، لا تفلتـه، السيقـان القـويـة القصـيرة القابضـة بكلابـاتها العـظمية النـافذة إلى مخـابيء الحياة بحساسيتها النابضة الخافية التي لا منعة فيها.

سوف تصطدم السيقان والأذرع والضلوع، وتصطرع الأجسام، وترتطم أعمدة العظام، بلا عقل. في شراهة الخطف والهبش، في التطام التخبط والتصادم، في تصميم الكسر والهصم، بين تهشم حجارة الحياة المنقوضة، وضجيج الأحشاء المكنونة مكشوفة فجأة للنور القاتل، بين صرخة النصر وحشرجة التشبث بالهواء الواهب للحياة.

كان ينهج، وهو يصطدم بالناس، ويهتفون به، يمرق بين السيارات وعربات الكارو المتزاحمة، وتلاحقه الشتائم والتوجعات الساخرة، ويهبط سلالم مترية بين جدران ضيقة مترية، وتصفّر خلفه عساكر المرور، وتنحرف الدراجات عنه وهي تقرع أجراسها دون توقف، ويتراجع الناس أمامه وهم يشوّرون بأيديهم ويزعقون به.

كان قد رآه. التقى به، وحده. وفي قلب الميدان.

وعرف الآن ماذا يمكن أن يحدث. ما يحدث بالفعل. وهو أيضاً لن يقول لأحد أبداً.

لكنه عرف أيضاً ماذا عليه أن يفعل، منذ الآن. عرف بقلب واجف قلق ما يجب أن يفعل، هل يستطيعه؟ هل يستطيع أن يقوم بالمهمة التي قرأها في العينين العاقلتين الشرستين؟

كيف وصل إلى الغورية؟ لم يكن في ذهنه إلا صور متعاقبة خاطفة من الترامويات والناس، من الزحمة والعربات، في مطاردة أفلت من قبضاتها المفاجئة المتهددة، من صرخاتها

وعجلاتها القاسية. أنفاسه تقتلع من صدره اقتلاعاً. لن تعود ساقاه، بعد قليل، تقويان على احتماله والاندفاع به، جرياً. الأرض تشدهما إليها، وصدره شق ضيق جارح. لكن ذهنه هادىء، في بؤرة ثابتة من حرارة ساطعة، يعد عدته لصراع لا يعرف أين يحدث، ولا كيف يخرج منه، ولكنه يعرف أنه سيذهب إليه، طائعاً أو برغمه، ويخور قلبه عندما تطوف بذهنه نتائجه، لا يسلم أبداً بها، ولكنه يعرف أنها محتومة وضرورية، أياً كانت. ويعرف أنه، طائعاً أو برغمه، سيخوض غمرته.

العينان القاسيتان تنظران إليه، من عمق شفاف أجنبي عنه، ما زالتا معاديتين. ولا رد عنده.

كان مسنداً ظهره إلى الكرسي غير المريح، يرفع رأسه إلى الحائط القديم، وضلف الشبابيك السوداء. كان الحمام يدخل ويخرج، برشاقة بطيئة هادئة، من أقفاص الجريد التي تحيط بها أوراق اللبلاب، فوق جدار القهوة البلدي. وقد صفت الكراسي في مفرق الطرق على الأرض المفروشة بالرمل المبلول. وقدة الظهر قد خففتها الظلال المتراوحة على تعريشة العنب الممدودة، سقفاً أخضر مثقوباً في أرابيسك غير منتظم، فوق الشارع، على أعمدة خشبية رفيعة حائلة الاغبرار. وجاء الصبي بإبريق الشاي المعدني الصغير الأزرق المدور، لم يعد يرى مثل هذا الإبريق كثيراً. يذكره من طفولته. كان إبريقه هو، لا أحد آخر يشرب منه الشاي. شاي طازج جديد، وكوب سخن ثلثه ماء سخن، وملعقة صفيح غارقة فيه، وسكر في منفضة سجاير

زجاجية مضلعة. هذه قهوة نظيفة، معتنى بها، حسنة الإضاءة.

ـ أهلاً وسهلاً. شرفت المطرح يا فندي.

ـ أهلاً بك. الله يشرف مقدارك.

ـ نورت الغورية.

ـ منورة بيكم وبالجدعان.

ـ رايح القلعة إن شاء الله؟ خان الخليلي؟

ـ أبداً والله. مشاغل.

ـ ربنا يعين.

ـ سمعت الأخبار؟ ماذا حدث في الميدان؟

ـ هل حدث شيء في الميدان؟

ـ أنا أسألك ماذا حدث في الميدان؟

ـ ماذا تريد أن يحدث في الميدان؟

ـ الساعة عشرة الصبح؟

ـ ماذا يمكن أن نفعل؟ لا بـد أن يمر الـواحد من الميـدان، في الصبح أو المساء.

كان الرجل يستمع إلى الحديث. وقف على الناحية القـريبة، بينما هو يقلب الماء الساخن بسرعـة، يديـره في الكوب ليـطهره ـ أليس هذا هو المفروض أن يفعل؟

وعندما ألقى بالماء بعيـداً عنه إلى الأرض المفـروشة بـالرمـل،

كـان الرجـل ينظر إليـه، دون ابتسام، عـارفـاً. وجهـه الـداكن مغلق، عيناه مدفونتان، ليس فيهما مكان للرحمة. عظامـه متينة، فيـما يلوح، تحت القميص الـرمـادي المفتـوح خـارج البنـطلون الأسـود المكـوي. فمـه المكتنـز، بشفتيـه السـوداوين تقـريبـاً، الشهوانيتين، كأنه على وشك الابتسام. لم يبتسم.

ـ هل حدث شيء؟

كأنما حياته نفسها تتوقف على رد من الرجل.

ـ أتفضل الشاي.

ـ آه. الشاي. الشاي هنا عظيم.

ـ أصيب أحد؟

ـ لماذا؟

ـ في الميدان.

ـ الإنسان دائماً مصاب.

ـ لا. لا. أبداً.

سقط نور الشمس، مخففاً، من بين أغصان التعـريشة، عـلى الوجه الداكن. هل هي ابتسامة؟ أم لعب الضـوء بعينيه؟ رشف من الشاي، ما زال ساخناً، وضع الكوب، عـلى رخامـة المائـدة المدورة، ببطء.

ولم يرفع بصره من الأرض.

على الرمل المبلول المسوى، واضحة، قاطعـة الوضـوح، آثار

أقدام أربعة، مفلطحة، غاصت في لـدونة الـرمل من ثقـل كتلة الجسم العريض، تنتهي كل قدم بغرز عميقة في الأرض، مدببة الغور. المخالب المقوسة، على بعد خطوتين من عينيه.

وظـلال الأوراق تـرتعش بـين استـدارات الضـوء الصغـيرة المهتزة، جاءت أصوات خبط ودق معدني بعيد ـ دكان سباك، أو ميكانيكي سيارات، سروجي عـلى الأرجح، لا بـد أنه سروجي سيـارات، الـسروجيـة لا تحتـاج مهنتهم إلى خبط ودق، مبيض نحاس، نعم، أو صائغ، ربما، أو بيـاع البسبوسـة تحت المئذنـة العتيقة، أقام منصة حلواه اللينة الندية بالعسل السريعـة العطب جنب أحجـار الجـامـع السـوداء الألفيـة. وارتفـع زقـاء ديـك، طـويل، في همـود الظهـر المبهم، ينادي الفجـر. وتكـرر صيـاح الديك في السكون، مرة أخرى، ومرة. لم يـرد عليه نـداء آخر. وحشة هذا النـداء لا تطاق. كـل شيء يغمره سـلام. وصمت. القهـوجي عـلى النُصبـة، في الـداخـل المعتم الـرطيب، يغسـل الأكـواب ويضع الصـواني الصفراء التي تقـطر ماء بعضهـا فـوق البعض لها قرقعة نحاسية مكتومة الصدى، مبتورة.

ـ حصل لنا الشرف.

ـ الله يشرف مقدارك.

ـ من الناحية؟

ـ أبداً والله. مررت من هنا مجرد مرور.

ـ قلت تأخذ شاي؟

ـ شاي عظيم.

ـ أهلاً وسهلاً.

ـ تقول حدث شيء؟

ـ أي شيء؟

ـ أبداً. مجرد سؤال.

ـ حصل خير.

كان يصعد إلى الحارة من سلالم ضيقة حجرية متهدمة، ملبدة بطبقة قديمة من التراب. وجر قدميه في بركة صغيرة موحلة من ماء غسيل تتشربه الأرض. ومر من تحت شرفة خشبية مائلة مهجورة، تكاد تسقط من بين أحجار مكومة في دور علوي مهدود. وعبر أمام بقال مظلم مدفون تنزل إليه سلمة إلى الداخل، وأمامه صندوق الكوكولا أحمر مقشر الطلاء. وصمتت النساء لحظة، وهو يمر، جالسات على العتبات المترية يرضعن ويثرثرن بصوت عال مرتاح ممدود، في قمصان نوم مقورة الفتحة واسعة باهتة. ذراعان ناعمتان تلقيان بماء وراءه، من حلة كبيرة. وجه امرأة، كأنها طفلة، لكنه نسائي، معابث، غض، ساخر، مشعث الشعر تحت المدورة التي تنتهي بكريات صغيرة مهتزة ملونة. ولد يقعي في وسط الحارة، في طريق الذاهبين الآيبين، وقد رفع جلابيته النظيفة حتى وسطه، واستغرقه الجهد المستحوذ الذي تركز فيه كل جسمه، باستمتاع، ورفع إليه عينين مستطلعتين، غائبتين، وجهه محتقن بالدم والجهد المريح.

ودار حـول الخرابـة الغائـرة الأرض، من وراء كوم تـراب عـال هبت عليه منه رائحة العطن والراز والصفيح الصـدىء والأرض التي ينتقع فيها المـاء على مهـل. هذه بيـوت قديمـة. وراءه علب الطوب الملونة بألوانها الفاقعة، قد أخذت منذ الآن ترث وتتشقق شقوقاً رفيعة متعرجة سوداء.

أين يجده؟ كيف يمكن أن يجده؟ قال له أنه في كل مكـان، في الميـدان، في حواري الحلميـة، في شـوارع شـبرا، تحت المتحف الزراعي، قال له في ساحـات مصر الجديـدة، وفي الصاغـة، في أغوار الغورية، نعم جنب الجيزة، في جنينة الحيوانـات، أيضاً، مقفلاً عليه داخل القفص وخارجه، أيضاً، قـال له عند الساعة في سليمان باشـا، وعند السفـارات في العجوزة، والـزمالـك وفي الأزهر، قرب قرافة الإمام، وعلى العلو في العبـاسية، قـال له في كـل مكان. النـاس لا يعرفـون، خـطوه بخـطوهم، رجله عـلى رجلهم، أنفـاسه في صـدورهم الشرسة ونبضـه هو نبض قلوبهم المحطومة. لا تفهم؟ قـال له أنـه يدخـل الشارع ـ كـل شارع ـ بأقدام واثقة تعرف أنها تملك الشارع، كل شارع، قال له بأعين حنون قابضة، تحتضن الناس، ساقاه الأماميتان عليهما شعر ناعم وملبـد تفوح منـه رائحة الحيـوان الـوحشي الحـريفـة الـزاعقـة، شممتها، قال له، أنفاسه زخمة بخراء، ولكنك، تعرف، تحبها، وتنشقها وتجد فيها طعماً تريده، قـال له تجـد الأشلاء فيـما بعد، مـرمية عـلى التراب، أو عـلى الإسفلت، يرفعهـا عساكـر المـرور ويضعـونها عـلى الـرصيف، كلقمـة عيش، ويغـطونها بـورقتين

مفـرودتين من «الأهـرام»، أو «الأخبار»، قـال لـه النـاس تلقي بصفيحة ماء على الدم الذي يسود لونه سريعاً، أو يرشونه بقليل من الرمل أو التراب، وعجلات السيارات على أي حـال سرعان مـا تمحو كـل أثر، قـال له أن قـطعاً صغـيرة ملوثـة من مـلابس الأطفال، ممزقة، يطير بها الهواء أحياناً، ويلفهـا الناس ويـرمونها عـلى جنب وتضيع، بـين قشر الـترمس واللب وورق كـراسـات التلاميذ الممزق، قال لـه ينسلّ من تحت البـوابات العتيقـة، بين دكاكين الأحذية، وشوالات العطارين التي تنفث رائحـة التوابـل والبهارات، يحتك أحياناً بـأكوام الـذرة المغلفة بخضرتهـا، وتهتز عربات الترمس والذرة المشوي من صدمة جسمه بهـا، على شط النيل، بين المتنزهين والجـالسين عـلى العشب الناصـل، قال لـه النـاس لا تسرع ولا تجـري ولا شيء، قـال لـه صرير صـدره، وزحـيره، يتردد أحيـاناً، كـأنه من الـداخل، حيث لا يـوجد في الشارع إلا ضجيج المرور، كرير أجوف يتذبذب داخل إسطوانة القفص الصدري الوثيق، ويلتفتون فلا يرون شيئاً، هرير عميق به حشرجة طبيعية منتظمة، ثابتة الإيقاع، قـال له ضربـة واحدة تجعـل الرأس المبتـور، فاغـراً عينيه، صـامتـاً، يسقط بصـدمـة مكتـومة عـلى أرض الشارع، وتتحـاشاه السيـارات قليلاً وتنفث الحمير التي تجر عربات الكارو، في رعب مفاجَأ، ثم تشتد الزحمة من جديد، وتغلق الثغـرة في المرور، ولا يـدري أحد، ولا يهتم أحد حقاً ما إذا كانت القرقعة الخفيفـة الوزن، التـافهة في عـراء الشوارع وصخبها، جـاءت من العظام المتهشمـة، أو من قرقعـة

غازات العادم في السيارات، أو من خبط الأبواب التي تصطفق، قال له أحياناً يجد الأولاد على الرصيف، أسناناً منزوعة عليها تراب قليل، فينظفونها ويلعبون بها يا شمس يا شموسة، خذي سن الحمار وهاتي سن العروسة، يا شمس يا شموسة، خذي سن العريس وهاتي سن الجاموسة، قال له زمجرته أحياناً ترتفع في وسط النهار، توقف كل شيء، في دائرة ضيقة، لحظة من زمن، وتخرس كل شيء، ويتكرر الزئير المحتشد بالخوف والتهديد معاً، ولا ينظر الناس إلى بعضهم البعض، ينصتون لحظة، برغمهم كأنهم لا يصدقون، إلى الصوت المفزع المروّع معاً، ترتطم أصداؤه، في لحظة الصمت والإنكار، بين الجدران والنوافذ ولوحات الاعلانات، في قلب الميادين، أو في السكك المسدودة، وتسمع أحياناً أصوآت الضلف والأبواب الحديدية أمام الدكاكين والواجهات تنزل بسرعة، وأبواب الشرفات تصطفق، ولكنه بعد ذلك يعود فيسير، بخطواته التي لا صوت لها، مركب بطيء رشيق ضخم الجرم على النيل، تتموج أشرعة جسمه، بقوة ومعرفة، وسط الناس الذين يعبرون اشارة المرور، لا ينظرون اليه، ولا يرونه أيضاً، يثب، في خفة، بين أنوار الاتوبيسات الحمراء المترية، تنحرف له قليلاً، وتبطىء، لتتيح له أن يعابثها، مرحاً، شبعان، قال له خشخشة مخالبه تسمع أحياناً، في الليل، على أبواب الشقق النائمة، ويستيقظ رب البيت، فجأة على الصوت، ويظن أنه يحلم، ويرفع رأسه قليلاً من المخدة، ويحبس أنفاسه، ينصت ويترقب، قال له أنه

يعرف، انه يعرف. قال له صحيح.

في كل خلجة منه حس مهدد قريب بهذا العناق الأخير، عندما تطبق عليه السيقان الشعراء الملتفة، في حنانها المصمم الخام، قاسية تؤدي واجباً.لذلك قسوتها ضرورية، تمسكه بمخدات الاقدام الناعمة المفلطحة، مخالبها الحادة مغمدة في جرابها، وتغمره الرائحة الحيوانية الزخمة التي لا فرار منها، الرائحة الخصيبة الكثيفة كثافة جسم يتحلل وتنسكب إلى الخارج عصاراته الطازجة في أول لحظات الفساد الأخير، ويلصق جسمه، في قبضة كاملة الاحاطة، بعضلات الصدر العريض، تزحر فيه أنفاس متضخمة الايقاع، هادئة، ويرتفع الكرير الأجش يملأ العالم، وتسطع الرائحة الملبدة الثقيلة تسد كل شيء، للمرة الأخيرة، في حضن يضغط تلك الضغطة الرحيمة المهشمة النهائية التي يظلم فيها كل شيء.

ومواكب الناس تمر به، في باب الحديد، كل إلى وجهته، في وحدتهم واندماجهم معاً، ماذا يفعلون؟ هذه الوجوه التي لكم، منحوتة، مضلعة، منبعجة ومضغوطة، عرَّتها الوحشة والقسوة وجففتها، شققها العرق وخطَّ فيها الألم والشبق أخاديد لا تمحي، هبت عليها وفتتها أعاصير الشهوات والآمال الآمرة، وإنهاكات التحقق والإحباط معاً، كلها لا تفي بشيء وتترك الجوع متقداً لا ينطفىء، عطشانة دائماً، ويابسة، ذابلة، متطاولة، مسحوقة غضة، متهدلة، مشدودة في إيناع الصبا،

فتوة النضج، إشراقة خاطفة تمتلىء بعدها باللحم المتلمظ وتغص بالتجشؤ العفن، هذه العيون الطاردة، والمختبثة، والمتربصة والمقتحمة، والجامدة، أرواح محبوسة في حفر قبورها، تتوائب وتخمش وتنبح وتزأر وتكركر بضحك الضباع، من غير صوت. وأرواح تنادي، بصوت مكتوم. تنويعات شائهة على أصل بسيط وجليل قائم عند أساس صخر الجسم الذي يتحات ويسقط عنه فتات الحجر، لتترك مسوخ النقوش المعراة، طبقة بعد طبقة. ماذا يفعلون؟ إلى أين يذهبون؟

الوحش الذي يسكن قاع قلبي ترتفع به مياه حب غير مفهوم وغير مطلوب، ثم تتهدم الأمواج. قال له إن المركب لا بد أن يسير. أين سفينتي؟ قال له إن الصيف جاء مبكراً هذا العام وإننا بالليل سنعود إلى بيوتنا، وننام. قال له ماذا تريد أن يحدث، كنا لا بد أن نمر من الميدان.

عندما عبر الشارع أمام سينما مترو، دخل الممر الضيق، بين الحيطان المرتفعة المعتمة. أوراق الشارع ونفاياته النظيفة الجافة قد كنست وجمعت في كومة صغيرة غير منتظمة، جنب الرصيف، على البلاط المغبر القديم. ومر بذهنه أنه لم ينزل قط، ولم يصعد قط، مثل هذه السلالم الحلزونية الحديدية التي تدور وتدور مرتفعة إلى ظلمة فوقية غامضة، إلى سطوح حادة لا منفذ فيها، في المغرب البرونزي الصدىء القاتم الخضرة. كانت قدماه، من التعب والغياب، تختطان به طريقاً غير مستقيم. واصطدمت كتفه بصناديق الخشب المبقورة الجوانب الموضوعة في

أكوام قلقة حرجة تهـدد بالانهيـار. وكانت الـدكك الخشبيـة على الأبواب، فارغة لا يجلس عليها أحد، لامعة مصقـولة مجـوفة في وسـطهـا قليـلاً من طـول جلسـة أجيـال متعـاقبـة من البـوابـين المنسيين.

كانت تجلس على الأرض، ترضع ابنهـا، صعيديـة، سوداء، مجعدة وجافة، تنحني عليه بلا اهتمام، في حركة حنـان لا يطاق، لا يبرر شيئاً ولا يـبرره شيء، ثدي صغـير داكن متهدل، مشقق بالغضون الذابلة، وطري مع ذلك يحمل عصارته، حقبة لحميـة ملآنة مقددة الجلد ترتطم بعظم الصـدر ويمصها الفم الشره دون هـوادة، أنثى حيـوانيـة هـزيلة ولكن عينيهـا تلمعـان لمعـة غـير حيوانية، من طول تعرية لشمس صراع لا راحة فيه، من جفاف انـتزاع العطاء من بئـر ضحلة، ويأس الاقـتراب والابتعاد، بـلا نهاية، من الإشباع الذي يعد وينكث وعـده، وينسى ويعود، في تكرار فقد كل نضارة وكـل جدة. يـرتفع بجـانبها قفص جـريد انكشفت أضـلاع الخوص الـرفيعة فيـه، متخاذلـة ومصلوبـة في رقتها، لا تتهاوى، مفروشة عليـه بضع صحف يـومية، وكتـاب «الشعب» بعناوين كوفية وصورة مئذنة سـامقة، اصفـرت جلدته وتلوت أطـرافهـا من الهـواء السخن. وجههـا الأسـود المتهضم مضيء بصـبر آخر، والـولد عـلى حجرهـا، مضغة تبـدو لا أهمية لها، يتشبث، سمكة على حافة شط جاف بـه ماء قليـل، يدفـع بساقيه وقدميه.

أقول لك سيدتي، حبي، أمي. سخف هش مثير للضحك.

أقول لك إنني أعتذر، إنني آسف، وحزين. عبث. لست أقول لك شيئاً، ولا أستطيع. ما أرخص هذه الدموع التي لا تريد ـ مع ذلك ـ أن تنسكب. لست أعرفك، يا أمي، لا شأن لك بي، لا شيء يصل بيننا، كل دعوى أخرى باطلة. قال له الوحش سفينة تبحر بنا في مياه مجهولة. والعالم وحش، والألم. ولا هذا أيضاً. لا.

كان يمشي، في آخر نور السماء، في طريقه الخاوي الذي تحيط به الأشجار، لا ينتهي، موحشاً، ليس فيه شيء، على الرصيف وتحته برك جافة من الحبوب الصفراء الدقيقة التي تسقط من أشجار الكازورينا في الصيف، يهب بها هواء أول الليل فتطير وتحط على إسفلت الطريق. مصابيح الشارع مضيئة زرقاء في ضوء السماء الأخير، كرات زجاجية تشع بنور لا جدوى فيه، وهو يسير، نائماً مغمض العينين، في إرهاق كامل وصل به إلى حدود الحلم، في غيبة لا يوجد فيها إلا جسمه، وحش مهدود، يمضي دون إرادة، دون مخالب، دون عقبة، دون وصول، بلا انتهاء. يحس السيارات تمرق من على جانبيه، في حلمه، صامتة، أصواتها خافتة ومتمكنة في قوتها، يحس الناس على الرصيف غرباء، وأخوة يأمن لهم، ظلالاً قاتمة في نور وعيه الداخلي الخافت، عاكفين على طريقهم، دون توقف، ودون إسراع.

نداء يهتف به:

ـ إدوار. . إدوار. .

الصوت في هدوء الشارع يأتيه في حلم فسيح معتم، الصوت نافورة تنبثق بين جدران كثيفة، يرتطم ماؤها بالحجر الصلب القديم، ويسقط.

أهو نداء باسمه في الليل؟ لا، ليس هو. اسمه غريب عنه، ما صلته به؟ والصوت غريب.

ودون أن يفتح عينيه، كان يبدو له أن البيت بعيد.

فهرست

		صفحة
تحت الجامع	٧ فبراير ١٩٦١	٥
آخر السكة	٧ مايو ١٩٦٧	٢٤
الأميرة والحصان	٥ مايو ١٩٦٧	٥١
جرح مفتوح	٣١ مارس ١٩٦٩	٧٣
البرج القديم	٧ سبتمبر ١٩٦٩	٩٢
في الشوارع	١١ سبتمبر ١٩٦٩	١٢٥

اللوحة للفنان عدلي رزق الله

«في اللحظة التالية كانا معاً، تحت الماء، في الترعة العكرةِ السُمرة، وقد انعقدت الظلال وبقع الفضة السائلة معاً، واندمجت، وتقلبت في اهتزاز الموج البطيء. والماء قابض وضحضاح، والأرض تميل تحت جسميهما، لا تكاد، لزجة، رملية، ويشبان معاً، ويخبطان بالأذرع، ولا رشاش هناك، يحتفظان بالوجه فوق الماء، يشهقان في طلب النَفَس، ثم ينقلبان في الماء معاً، دون غرق، يحتضن بين ذراعه الجسد المبتل الذي التصقت به الثياب وارتسمت كل تفاصيله تحتها، في شفافية محسوسة، تدفعه ليلتصق بكل استدارة فيها، ويطفوان معاً، في تموّج متماسك، متمددين يحملهما الماء دون جهد، ولا يخرجان فوق سطحه، والماء قد انحسر بجلبابها الطويل عن ساقيها المستديرتين اللامعتين من البلل، في لحمها، تحت يديه، بضاضة جديدة طازجة تومض في عتمة الماء

من قصة «البرج القديم»

دار الآداب

هاتف ٨٠٣٧٧٨ ـ ٨٦١٦٣٣

ص.ب ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت